إمِلي نصرالله

طيور أيلول





طيور أيلول
في ميزان الأدباء

مَعرض فني لِلقريَة اللبْنانية في شتّى مَظاهِرها ... إنّه لكسْب كبير لِلقصّة في لبْنان .

ميخائيل نعيمه

حِكاية قرية مِن قرَانا . مُؤلّفٌ غير عادي ، يُغني أدبَنا القصَصيّ الفني : الأرض تعِيش وتتألم كامْرأة تُحبّ ، وَالبَشر يَرتطمُون بقدَرهم ، مقدّمًا ، قبل أن يَتشظّوا بَعيدًا في قلب المغامَرَة .

سعيد عقل

واحدَة مِن أفضَل الرّوايات الحَديثة التي كُتبَت بالعَربيّة حَتى الآن ... تجمَع المؤلفة المقدِرة الغِنائية في التعبير وَالوعي الإجتماعي .

يان بروخمن
مستشرق هولندي

إنهَا قصّة الشبَاب بِطمُوحهِ وَآمَاله ، وَالشيخوخة برضَاها واستسْلامها ... مَوطِن الجمَال في "طيور أيْلول" أنها ارتفعت عَلى السّقوط في التقليدِ الأعمَى .

أمينة السعيد

... ألوان في يَد فنان عَرَف كيف يَمزج بَينها ويُنقي ويُضيء ويُظلّل ، ليُخرج الصُورَة في أليَق إطار .

د. سهير القلماوي

نوفل

إملي نصرالله

طيور أيلول

رواية

نوفل

- طبعة سابعة. ١٩٩١

مؤسسة نوفل ش.م.م
بناية نوفل شارع المعماري
تلفون ٣٥٤٨٩٨ - ٣٥٤٣٩٤
تلكس ٢٢٢١ نوستن
ص.ب ١١/٢١٦١ بيروت لبنان

EMILY NASRALLAH

BIRDS OF SEPTEMBER

Seventh Edition 1991

Naufal Group sarl

NAUFAL BLDG. MAMARI Str. P.O.BOX 11-2161 BEIRUT-LEBANON
PHONE. 354898-354394. TELEX NAUSTN 22210 LE.

الى قريتي، الطيّبة حيث امتزجت
ذرّات كياني بذرّات ترابها الاحمر

تمهيد

عندما يحلّ أيلول ، تاسع أشهر السنة ، تمرّ فوق قريتنا أسرابٌ كثيرة من طيور كبيرة الحجم ، قويّة الجناحين ، يعرفها السكان بـ « طيور أيلول » .

ويتلفّت الناس نحو الفضاء الموشّح ببواكير الغمام ، يراقبون الطيور ، وفي صدورهم غصّات انفعال .

إن هذه الطيور المهاجرة تسجّل نقطة جديدة في دائرة الزمن .

ويَذكرون أن فصل البرد أصبح على الابواب .

ويقف شيخ في منتصف الطريق يسند ثقله الى عصا سنديان ويمسح شاربيه ، ثم يرسل نظرات متسائلة

نحو الطيور ، ويدغدغ حلماً عزيزاً .

وتمسح امرأة يديها المبلّلتين بالماء على جانبي ثوبها ، وتنفض منديل الرأس لتعيد حزمه من جديد حول شعرها ، وتشيّع الطيور بنظرات الحنين .

ويحمل الشباب بنادق الصيد ، وينطلقون الى الحقول والمرتفعات المحيطة بالقرية ، يتربّصون بالطيور المهاجرة ليقنصوا واحداً منها .

والصبية الصغار يركضون حفاة ، يطاردون الظلال المنعكسة على الارض ، ويرشقون الطيور بالحصى من مقلاع أعمى في أيديهم ، ويرغون ويشتمون حين تعجز حجارتهم عن إصابة الهدف .

وثمّة صبايا ، لهنَّ عطفٌ خاص على الطيور المهاجرة ، يرفعن إليها نظرات محمّلة بالابتهال ، بالصلاة الحارة ، كلّ نظرة تحمل ألف دعاء وألف سؤال .

ويبقى الحبل موصولاً أياماً تراوح بين الثلاثة والعشرة . ويتناقل القرويون أنباء الطيور الراحلة ، وتتلوّن أحاديثهم بلون جديد يحطّم رتابة الحياة

البطيئة .

وتتابع القافلة سيرَها صوبَ السهول الدافئة في الجنوب . إنها تهرب من أذى الصقيع في البلاد الشمالية .

تهرب من نفح العواصف الثلجية ، من شحّ الارض ، وتنشد الدفء في مطارح بعيدة . وتعاود الرحلة في كل عام ، تسير على درب الآباء والأجداد .

ويبقى طعمُ الهجر يتململ في أجواء القرية أياماً . إنه يعشّش في الكوى ، في شقوق السطوح الواطئة ، في المسامّ الصغيرة بين أوارق الزيتون والسنديان ، في دموع تفلت من المآقي ، في آهات حرّى تندفع من صدور الأمهات .

وكأنّما الطيور تشعر بالأشجان التي يُثيرها عبورها ، وتلقيها مع ظلالها فوق السطوح وبين الأزقَّة . وتتابع رحلتها بصمت .

الصمت الحزين ، المرفرف في أجواء القرية ، يُنقل اليها ، يعصر وجودها ، ويُخضعها لرَهبة السكون .

للقرية عطفٌ خاص على طيور أيلول ، رحيلها

يعيد الى الذاكرة صور الطيور الكثيرة المهاجرة . طيور صغيرة أو كبيرة أو متوسّطة الحجم ، ثقبت الجدران ، وفتحت فيها كوى تكاد لا تتسع لأحجامها ، ثم رفّت بأجنحتها وأفلتت لتحلّق في أجواء بعيدة .

والسكان لا يحفلون بعودة الطيور في مطلع الربيع . إن أسرابها تتفرّق ، فمنها ما يستطيب الدفء في البلاد الجنوبية ، فيقيم هناك مسكنه ، ومنها ما يعود وحيداً بلا رفقاء . وكثيرٌ من الطيور تتحطّم أجنحتها في عاصفة مفاجئة تهبّ عليها خلال الرحلة ، وتقذفها على النتوء الصخرية ، أو تبلّل أجنحتها ، وتهدّ قواها .

وهكذا يبقى طعم الهجر على ألسنة السكان ، وينحدِرُ فرح العودة في غُصّةِ الوَداع ، وتغمر دموع الشَوْق الحزين الدمعات الشحيحة في أعراس الفَرَح .

ويتلفّت السكان ، وقد أعياهم العجز ، ويصبّون النقمة على القرية الصغيرة الوادعة .

وتعجز القرية عن ردّ السهام الناقمة ، أو الوقوف في وجه هذا التيّار المتّصل جيلاً بعد جيل ، تماماً كما

تعجز عن صدّ طيور أيلول عن عبور سمائها .

إنها تحضنهم ولا تدري . تتحكّم بمصائرهم دون إرادة منها . تُذرّي أرواحهم كما يذرّي الفلّاحون القمح على البيادر . وتسِم وجوههم بقبلة عميقة . ويحملون قبلاتهم كبصمات القدر فوق جباههم ، ويسيرون في الارض ، في كلّ بقاع الارض ، غرباء فيها ، يبحثون عن الكنز الضائع ، المدفون في ركن عميق من صدورهم .

ويشعرون أن هناك يداً ، أعجز من أن يصدّوها ، تعمل على تفرقتهم ، وذرّهم في عيون الكون ، غرباء فيه ، يدورون في حلقات مفرّغة يبحثون عن أنفسهم وعن الكنز المفقود .

وفي كلّ عام ، يتطلّع من تبقّى منهم مرّةً صوب الفضاء ، يراقب الغيوم الرمادية ، بواكير غيوم الخريف ، ويتابع عدّ الطيور الراحلة .

صفحة فارغة من أصل الكتاب الورقي
(عازلة بين فصلين)
عادة من عادات بعض المطابع
لا تبدأ فصلاً جديدا إلا على رقم صفحة فردي
(أو على صفحة تتوافق وضعيتها مع غلاف الكتاب)

حين أجلس ، هنا ، على الشرفة الخضراء ، المطلّة على الشاطىء الذهبيْ الدافىء ، أفكّر في اولئك الأحباء الذين عاشوا معي فترة من العمر .

وكلّما غرزتُ عينيّ في دفق الأمواج الزاخرة ، أعود الى أيام طوتها الذاكرة بين ثناياها ، كما يطوي الأمواجَ الفضيّة صدرُ البحر الرهيب .

لقد مرّت سنوات على ذلك ، وكلما حاولت عودةً إلى الماضي رأيتني أندفع هاربة في سبل جديدة ، تسطّرها أمامي الحياة .

وترتفع نظراتي فوق أجنحة طائر وحيد لتحطّ

معه على شراع أبيض يعبر الآفاق البعيدة .

أهو طائر غريب ، لاجئ ، ينشد الدفء على الأشرعة المصفّقة فوق الرمال الحمراء؟ أم هو طائرٌ مهاجر واحد من طيور أيلول ، تلك التي عرفتها في سماء قريتنا ؟

أجل ، كان ذلك في القرية حيث جمعتنا عربة الزمن، وسرنا فيها خطى بعيدة عميقة . ومن ثم هبّت رياح الخريف وذرّتنا كلاًّ في اتّجاه لم يحلم به يوماً .

ويدقّ شوقٌ مُلحّ أعصابَ وجودي ، فيقتلعني من هذه المنيهات ، فاعود أهيم بين الحقول الفسيحة ، أغرس قدميّ في التراب الاحمر الملتهب ، أعبّ الماء من النبع المتفجّر قرب كرمنا ، وأتلمس بيدي نتوء الصخرة الكبيرة .

لا تزالُ الأشياء كما تركتها هناك ، فالقرية لا تحفل كثيراً بمرور الأيام . إن الزمن ينزلق على صخورها الصلدة ، كما تنزلق شفتايَ ، في تعبّد صامت ، على الصخرة الرماديّة .

إن الأفق الغربي البعيد ابداً ينتظر في كل يوم زورقاً جديداً ليملأه بالنبتاتِ اليانعة من مشتل القرية .

ومن الشرق ، يبقى جبل حرمون ، رهيبَ الصمت ، حانيَ الأعطاف ، ينفحنا ببرودة ثلجه حين يشتد القيظ ، وتصْلي الشمس بنيرانها الأجساد السمراء بين حقول القمح الذهبية .

لا أدري لماذا تخطر ببالي هذه الصور الحبيبة ، وأنا أفكر في استمرار الحياة العنيد ، الحياة الزاخرة ، هنا ، في هذه الحظيرة البشرية .

أتصوّرها أحياناً أتوناً تُلهب جوفه ألسنةٌ حمراء ، صفراء ، زرقاء ... ألسنة نار حيّة ، تابى ان تنطفىء ، بل تندلع أبداً لتصهر النفوس البشرية ، بعد أن تعجنها في جرن كبير كالذي كانت تتربَّع أمامه أمي في تلك الصبيحة الشفّافة .

إن الربيع ، هنا ، يبدأ في شهر آذار ، حين يخرج جارنا أبو الياس فوق ظهر حماره الصبور ، يسوق

أمامه البقرات الى الحقول القريبة .

هربتُ من جو الغرفة الضيقة ، هربت الى المصطبة بغلالة النوم ، لأعبّ أنفاس الصباح المترعة بالعطر ، وقد أخذت البراعم الجريئة تفتّق أرحامها الصغيرة على غصون الأزدرخت في حديقة بيتنا .

والشمس تولد من جديد ، في ذلك الصباح ، فتهزم اللّسعات الباردة التي خلّفتها ليلة أمس .

وبقيَتْ خبطاتٌ رتيبة تتهادى الى سمعي من داخل بيتنا ، حيث كانت أمي تروّض عجنتها .

لست أدري ما الذي دفعني الى خلع « صندلي » الخفيف والتنقّل حافية على التربة الرطبة .

كنت أرسم ظلاً لوجودي التائه ، وأنتظر أن تحمى الشمس لتجفّف وجه التراب ، وتبقى آثار قدميّ قبلاً محمومة تربط كياني بكيان الارض التي أحب .

وتعودني وجوههم ، تتزحلق في خيالي بكلّ العواطف والآلام التي عشناها ، فاراها تطلّ من وراء

الغيوم المتقلّبة في الجو أمامي ، حاملة اليّ صوراً واضحة لتلك الايام : ضاحكة ، حزينة ، صامتة ، مرحة ، عابسة ، هامسة ، مصفّقة ، مرتبكة ... إنها الصور التي تعشّش في الذاكرة ، وتنتقل معنا ، خطوة خطوة ، في المراحل الطويلة التي نقطعها .

أذكر « مِرسال » .

مِرسال كانت تحمل الربيع حيثما فرشت خطاها . تحمله في الضحكة المشرقة ، في الشعر الاسود الطويل ، في الخطى الثائرة المرحة .

و « راجي » ... يبقى في ذاكرتي الطيفَ الذي تنشد أغانيه مِرسال .

تتهادى الى سمعي الآن إحدى قصائدها :

« حبيبي أسمر وحلو ،
ليس بين الرجال مثل حبيبي ،
في عينيه تعيش حكايات الربيع ،
وثورات أشجار الصفصاف على ضفاف أنهارنا .
في ساعدي حبيبي عزمُ الجبال ، وصلابة السنديان .

وقلبه الطفل يحبني . »

مسكينة مِرسال ! كانت تحفظ أناشيد كثيرة ترنّمها في جلساتنا الهادئة ، وتبثّها آهاتِ شوقٍ تهيم في جنبات الوادي القريب .

و « أنجلينا » ، جارتنا العجوز ، أراها ، الآن ، وقد تربّعت فوق حشيّتها العتيقة ، على عتبة الباب ، تكشّ الذباب في الصيف ، وتعدّ قطرات المطر في الشتاء ، وتحسب الأيام الباقية من العمر .

لا ، أنجلينا كانت أكثر من ذلك ، كانت الساعة التي تسجّل كرّ الزمن .

أتراها ما تزال فوق الحشيّة البالية ، تمضغ لسانها ، وتسجّل مرور الأيام ، فوق ثنايا الوجه المغضّن ؟

و « ومريم » ؟... و « فوّاز » ؟... و « نجوى » ؟... و « كمال » ؟... وعشرات الوجوه الحبيبة ... أين انتهت الاحلام التي غرسناها في الحقل المجاور لبيتنا ؟

كانت العاصفة عتيّة مثل كل العواصف التي تهبّ بين تلك الاودية والجبال ، فتهشّم الأشجار الباسقة ، وتقصف الأغصان ، فتجرفها السيول الى قعر الوادي .

ويوم اجتمعنا على بيدر القمح ، في عشية من عشايا الصيف ، لم يكن أحدنا يحسب حساب الأيام .

كنت وحدي أتأمل المذراة تقلب القش الناعم ، وتذرّيه . تهديه الى العاصفة لتعبث بـه وتمزّقه . ولمحتُ أطيافاً حزينة في عينيّ مِرسال وهي ترسل نظراتٍ متسائلـة الى المقابر القريبة فـوق كتف البيادر .

إن القرية تحفظ كل شيء . حتى الذين ماتوا ، تأبى ان ترسلهم الى البعيد ، فهي تضمّهم تحت أجنحتها ، تظلّلهم أغصان سنديانة جبّارة ، غرستها السواعد السمر منذ مئات السنين .

وهكذا احتضنتنا القرية حفنة من السنوات ، فلمّا انحَنَيْنَا نقبّل جدرانهـا قبلات الوداع ، طوت أسماءنا في سجلاّتها القديمة ، ووسمت قلوبنا بمياسم ناريّة كالتي كانت تستخدمها « الداية » أم منصور لشفاء الأمراض المستعصية عنـد أطفال القريـة ونسائها .

وتبقى نقطة النار تلتهب في قلوبنا . ولن تساعدنا

العودة على إطفائها ، فنحن لا نعود ابداً الى ما كنّا عليه بالأمس. وأمسنا ملك تلك العشايا الساهرة في ضوء القمر ، على سقيفة بيتنا ، وملك اللحظات النادرة التي عشناها في الماضي ، بين الحقول ، وكروم الزيتون .

في تلك الصبيحة الهادئة لبثتُ في فراشي .

كنت أصطنع النوم كيلا توقظني أمي من أحلامي .

هذه اللحظات المختصرة في الصباح هي أسعد أوقات نهاري ، ففيها أطير من قفصي الارضي ، وأحلّق في أجواء دنيا بعيدة .

كانت آفاق القرية تحدّ أحلامي وأفكاري ، وتقاليدها القاسية تضرب أسواراً منيعة حولَ أفعالي ، فاسير كما يشاؤون ، وأفعل ما يريدون .

وتحسّست ثورة عتيّة تجتاح كياني في تلك

اللحظة. تذكّرت أن أخي يحزم حقائبه استعداداً للذهاب الى المدرسة.

لماذا ؟

لماذا سمحوا له بأن يطير، هكذا، وبدون سؤال ؟

لماذا أبقى أنا، بين هذه الجدران الضيقة، أدوس آمالي، وامرّغ طموحي بقدميّ، أمسح به ارض الغرفة الضيقة ؟

ومددت يدي أتلمّس الكتاب الذي ينام تحت وسادتي. كان كتاباً تافهاً. أحد تلك الكتب القليلة التي أصادفها في بيوت الصديقات.

وتراجعتُ عن القراءة في تلك اللحظة بالذات، فأوقاتُ الصباح حافلة بالحركة والنشاط، وعليَّ ان أنفض عني الغطاء الثقيل، وأسرع لإعداد الفطور، ومساعدة أخي في حزم حقائبه.

شعرت بنفحة لذيذة تقرص جسدي، فرددت المعطف فوق كتفيّ، ومسحت عينيّ بنظرة من النافذة الصغيرة، قرب سريري.

كان ذلك اليوم أول أيام تشرين ، بدأت فيه الغيوم الداكنة تتوّج الهضاب حول القرية ، وراحت الاشجار في الكروم والبساتين تتعرى من اوراقها.

تشرين ؟

وشعرت بغصة تعضّ بصدري ، وتتغلغل في حنايا نفسي. إن هذا الشعور يعاودني كلّما لمحت الأوراق الصفراء تترنّح مغلوبة على أمرها ، وتدوسها الاقدام.

أهذا مصيرنا يوماً ؟

أطلّت الشمس ، مُترددةً ، من وراء حرمون ، وغصّت نفسي بحزن صامت ناعم ، وتهادى صوت أمي الى سمعي. لقد اعتدت هـذا الصوت في كل لحظات عمري.

أمي الطيبة الحلوة.

ــ أسرعي يا منى ، قبّلي سميراً. أنسيتِ أنه ذاهب إلى المدرسة ؟

لا. لم انسَ. نسيت كل شيء الا ذلك. كنت

أتمنى لو أرافقه الى المدرسة الكبيرة، حيث أغرق في بحار أحلامي، وأشبع نهماً ياكل قلبي، ومجاعة تنهش أعصابي.

إلا ان أسواراً عالية متينة من تقاليدَ ومفاهيم وأقاويل كانت تحول دون ذلك.

« علّموها بتخسروها! »

هذا ما كانت تردّده حنّة على مسمع من أمي في كل صباح. وحتى مِرسال، أحبّ صديقاتي الي، فغرت فاها حين جلستُ أحدثها عن طموحي:

ــ ولكن، ماذا يقول الناس؟ تذهبين الى المدينة، وتعيشين فيها وحدك مثل الشباب؟ لا شكّ أنك تمزحين يا منى!

ولم افهم كيف تجول هذه الافكار في رأس مِرسال؟ كيف أقنعوها حتى باتت ترى بأعينهم، وتنطق بالسنتهم؟

اقتربتُ من سمير أطبع على خده قبلة الوداع، وأهمس في اذنه: ليتني معك يا أخي!

وانطلقت العربة ، تحمله بعيداً عنا ، وتحمل نتفاً من ذاتي تطايرت ترافقه على طريق أتوق الى سلوكها .

وعدت الى الواقع ، على صوت أمي : « مِرسال في انتظارك قرب العين . ستساعدنا اليوم في قطاف الكرم . »

ووصلت مِرسال في تلك اللحظة : « لم أشأ ان أسبقكِ ، يا منى ، فجئت أرافقك من هنا . »

ثم اقتربت تهمس في اذني : « راجي سيقطف الكرم اليوم . »

ابتسمتُ وأنا اجترّ السرّ لاندفاع مِرسال باكراً الى مساعدتنا .

وفي الدار ، كان والدي قد أعدّ كل شيء : حزم صحّارتين من الخشب فوق ظهر الحمار ، وهيّأ لنا السلال ، بينما تأخرت أمي بعض الوقت ، ريثما تنتهي من إعداد « الزوادة » .

راح الحمار الصبور يلف أمامنا الطرقات الجبلية

الوعرة ، ونحن نقلق الصمت باحاديث مقتضبة ، وتحيات متقطعة نصبّح بها من نصادفهم من القاطفين .

لاحظت شوقاً ملحًّا في عينيّ مِرسال وهي تتطلّع صوب الكروم ، تبحث فيها عن راجي .

مررنا قرب كرمه ، قبل أن نصل الى كرمنا ، فلم نلمح له اثراً . ومات الشعاع في وجه مرسال وهي تمتم :

ــ لماذا لم ياتِ ؟ سمعت حنة بالأمس تعدُّ القاطفين ، وذكرت بينهم راجي .

ــ انتظري يا عزيزتي . لا يزال النهار في أوّله .

ــ منى ، لا تؤاخذي صراحتي . أنتِ الوحيدة التي أفتح لها قلبي . أحبّه يا منى ، أحبّه . إنه يزرع أيامي بالأحلام الوردية . الاحلام فقط يا منى ، فأنا لا أقدر على أن أحدثه ، أو أبادله الكلام . أنت تعرفين قساوة أبي .

وطفرت قطراتٌ بلّورية من عينيّ مِرسال ، فمسحتها بطرف كمّها . وحملنا السلال الى زاوية

بعيدة ، نطلّ منها على كرم راجي .

تربّعتُ فوق التراب الناعم ، ورحت أجرّد الكرمة من العناقيد الذهبية ، وأرصفها في السلّة ، ويدا مِرسال تعملان معي ، وقد علقت عيناها بالدوالي المجاورة .

ووصل راجي .

هبط علينا كالطيف ، ووقف أمامنا بقامته الفارعة ، وابتسامته الرضيّة المشرقة :

ـ مرحبا !

واجبته وحدي :

ـ اهلاً راجي . أتقطف الكرم اليوم ؟

ـ لا يا منى ، أجّلنا القطاف . غداً .

وسقط العنقود من يد مِرسال ، وهي ترى راجي يقف أمامها .

رفعت يدها الى شعرها ، تتلمّس خصلة ثائرة فوق الجبين ، وتابعت القطاف دون ان تنبس بحرف .

ـ كيف الحال يا مِرسال ؟

سألها راجي وهو يتعمّد البساطة والعفوية .

ـ بخير . وأنت ؟

ـ بألف خير ، بلقياكِ يا مِرسال .

ابتسمت مِرسال ابتسامة راجفة ، وتابع راجي حديثه :

ـ سنبيع الكرم ، ونخسر جيرتكم الطيّبة يا منى ... هوذا أبوك هنا . يعطيك العافية عم أبو سمير .

ـ أهلاً ، يا مِية مرحبا ، تفضّل يا راجي ، باركْ .

كتَمَتْ مِرسال شهقة كادت تفضح مشاعرها ، وهمست في أذني :

ـ لماذا يا منى ؟ راجي ليس بحاجة الى المال ، فلماذا يبيع الكرم ؟

وكدت أساله لولا خجل ساورني فصمتُّ .

تطوّع راجي فحمل السلّة الملأى ، وأفرغها فوق التلة ، حيث تتكوّم العناقيد الخمرية ، الذهبية ، خائرة القوى . ولبث لحظات يحادث أبي ، قبل أن يتابع طريقه بين الكروم .

احترمتُ صمت مِرسال ، وانتظرت ان تبدأ الحديث من جديد ، فراحت تتابع القطاف ، وتمزج الحبات الناضجة بدمعات أفلتت قسراً منها ، ثم سمعتها تقول :

ـ أنا خائفة . أخشى أن تنتهي هذه اللحظات الهانئة يا منى . ان راجي هو الأمل النضر الذي يشدّني الى الحياة ، ويدفعني لأطوي الايام الرتيبة ، ألوّنها بالشعاعات الدافئة التي يبثها وجوده .

لم اكلّمه مرّة . لذلك لا أعرف حقيقة مشاعره نحوي . فانا أرهن حياتي من اجل لحظة واحدة ألقاه فيها .

إنها النقطة التي تنتهي عندها آمالي ومشاعري . أحبه يا منى ، وهو يحبني . لقد أكّدت لي عيناه ذلك .

كنت بالامس جريئة ، وقحة ... لقيته على الطريق ، فلم أهرب من عينيه كما كنت أفعل ... لبثت أحدّق اليهما ، أبحث فيهما عن جواب لتساؤلي .

وعاش هو في عينيّ ، ولا يزال .

إن نظراته القويـّة تخبط جدران قلبي ، وتدفعُ الدم حاراً في عروقي .

لم أحوّل نظراتي عنه ، كنت أؤكد له حبي في نظرة .

نظرة واحدة ، يا منى ، كانتْ حرّية بأن تخطّ فصولاً طويلة في حياتي . وأنا ؟ قلت له كل شيء . اخبرته بالشوق المضطرم بين أضلعي ، بالرعشة اليائسة في يدي ، بالعاطفة المحترقة فـوق شفتي ... أنت تعرفين ذلك من الكتب يـا منى ، من حكايات قرأتِها ، وها أنا افتح لك كتاباً جديداً ، فاقرأي ...

أرجو ، يا منى ، ألاّ تنظري إليّ هكذا . أنت أقوى مني ولا تفتحين قلبك بسهولة ، ولكن هـل أحببتِ ؟

أنا ؟ هل أحببت ؟

أنا ؟ هل عشت لحظة دون حبّ ؟ يـا لِلمرسال الطيّبة !

وتابعتُ العبثَ بالعناقيد الدانية، وقد غسل يديّ ما سال من عصيرها. وارتفعت حرارةُ الشمس تصلي وجودي، وتزيد تشبّثي بالتربة الحارة. ومررت بيديّ الدبقتين على التراب الأحمر الحارّ، ورحت أفركها، أغسلهما بذرّاته، وأصواتُ طير الوروار تمزّق السكون من حولي، وهي تتناغى فوق شجرةِ التين، تمارس حياتها، تنقر حبّات التين، تتزوّد بجرعات من الدفء والحبّ، قبل ان تَهبط عليها عواصف الشتاء.

لقد أحببتُ كثيراً يا مِرسال
كان الحب مصدر قوّتي التي تعجبك.
إن معاصر العنب تعجّ بالحياة في فصل الخريف،
ولكنّ للحبّ معصرة دائمة في قلبي.
إنما كنا نختلف في أسلوب الحب يا مِرسال.

كلما صفّقت قدماي فوق أرصفة الاسفلت المائع، في شوارع المدينة، يزداد قرع الطبول في أذنيّ... طبول غربتي الدائمة.

وأمضي في ترنّحي، أبحث عن وجه من الماضي، يشقّ سبيله في أمواج الوجوه المتدفّقة بين المساكن الكبيرة الضيّقة حيث تصغر الاحجام البشرية حتى تحشر في علب مقفلة متجهّمة.

وأغمضُ عينيّ لأسمع أصواتهم بوضوح... اني أسمعها تشقّ جدران الصمت المغلّفة بغبار الايام، كما تشقّق نبتاتُ القمح النحيلة قشرة الارض لتعيد

أناشيدها الخضراء، ترنمها في آذان الوجود.

ويمتدّ سؤال مِرسال جسراً يربطني بتلك اللحظات المختصرة من عمرنا.

إنها، مثلهم، ملك تلك اللحظات الغابرة.

وأشعر بحاجة الى العناء والجهد لأعيد إليها حرارة الحياة. مثلي مثل نحّات انهار أمامه التمثال، وتحطّم، فجثا على الأرض، فوق نتوء الحصى، وراح يلملم قطع الجسد العزيز، يجمعها، يحاول إحياءها من جديد.

وقفتُ امام المرآة الصغيرة المعلّقة على جدار غرفتي، ولبثت أحدّق الى وجهي، ونسيت نظراتي في عينيّ.

وراحت المشاعر تتقلب في ذلك العمق البعيد.

وعلى ضفّة نائية كان الصمت الحزين ينصب خيامه.

كنتُ وحيدة، فهربت من الغرفة المظلمة الى الطريق، الى كرم الزيتون القريب.

كان الغبار يغطّي قدميّ والساقين ، فرحت أنقل خطواتي بين أكوام الحجارة ، وأحلم به .

كان الحب انشودة خياليّة ، أرنمها مع العصافير ، مع أشجار الزيتون الكئيبة في ذلك السكون الشريد في الآفاق البعيدة .

كنت أرسم لـه صورة بـين الصور الكثيرة المرصوفة في خيالي ، حتى بات هذا الرسم الوهمي هواية اجتهدت في إتقانها لأفزع اليها كلما ضاقت أنفاسي ، ومات الامل الأخضر في عينيّ .

لم أكن بحاجة الى درس في الحب والحياة أتلقّنه من أمي ، ولكني حفظت درسها وسائر الدروس المتهالكة على وجودي .

إنها مرصوفة طبقاتٍ طبقاتٍ لتؤلّـف هذا الكيان ، هذه الأنا .

هي مثل الرواسب التي جمعتها الطبيعة مـن جرف النهر الصغير ، في حقلنا الاخضر ، عند فم الوادي .

وأتلقّف بيديّ ، كما كنت اتلقّف الحصى الملونة

في الحقل ، أقوال ابي ، نظرته القاسية ، المستقرّة ، الى الوجود والانسان ، والى ابنته بنوع خاص .

أكاد أراه ، الآن ، وقد تربّع فوق طرّاحة وثيرة قرب موقد النار ، وأشعَلَ لفافة تبغ ، وراح يردّد مواعظه : « البنت الشريفة لا تعاشر الشباب ، لا تتطلع وجوههم . »

وتؤيده أمي : « أجل ... بالأمس، حدقتِ طويلاً الى وجـه راجي ... هذا لا يليق بالفتاة المهذبـة يا منى . »

ومعلمتي ؟

أما تزال تعيش في ذلك الكبت القاتل ، تصبّ نقمتها الروحية والجسدية في النصح والارشاد ؟

ومواعظ الكاهن ؟

كانت عباراته تتلبس الشكل الفلسفي . « الانسان مخلوق دنس ، والحب خطيئة مميتة . »

دنس ؟ الكلمة لا تزال جامدة في فكري ، تماماً كما خرجت من فمه في تلك الصبحية الباردة .

كنت سابحة مع ضباب البخور ، أرتفع ، أحلّق

على أجنحة الضباب، أكاد ألامِسُ القدرة الإلهية، حين شقّ صوته فجوة في قلب السكينة.

وكلّما حاولت ان أجد معنى لكلمة: «دنس»، يعاودني جمود الجهالة في تلك اللحظات.

كيف يكون الإنسان دنساً؟ كيف أكون انا كذلك، وركبتاي تعانقان البلاط المثلّج، وقلبي ينفطر، يتعبّد ببراءة، يطلب الارتفاع الى فوق، الى السماء؟

ويتابع الكاهن: «للخطيئة ثلاثة وجوه... الخطيئة في القول، والفعل، والفكر...»

وكم سددت أذنيّ بعد ذلك وأنا أسمع لحن ميجانا حنوناً، يتهادى في الليالي المقمرة، على أنغام المزمار القصبي، كيلا أقع في الخطيئة!

اقوالهم وسمت كل لحظة من لحظات عمري، وقيّدت اندفاع جسدي وفكري في سبيل واحد، ورحت باكراً أبحث عن عالم لا تصل اليه أقوالهم، ولا تطاله انتقاداتهم.

« الحب » ، تقول انجيلينا ، « نارٌ يحترق الانسان بالسنتها ... ما سمعتو شو صار بمريم ؟ »

وأنا بقيت أقود خطاي نحـو تلك النيران ، أكوّمها بيديّ ، أحترق بالسنتها ، على ضوء وجه أليف ينير عالمي الموحش .

مريم ؟

كيف أنسى حكايتك يا مريم؟ كانت حلماً مزعجاً رافق حداثتي وشبابي . وها أنا أحاول أن أعيد الحكاية ، أن ارسم وجهك من جديد ، أن أعرّفَ الناس اليه ، علّ مشاركتهم تريحني .

ولكن ، أتراني أنجح في رسم الوجه الحقيقي بعد الأيام التي انطوت ؟

والحكاية ؟

لم أسمعها من بين شفتيك . على اني أربط بدايتها بيومٍ خرجنا فيه الى حقول القمح في موسم الحصاد :

كنت أنحني فوق السنابل الذهبية ، أحزمها بيدي الصغيرة ، وأتأمل ، من حين الى آخر ، قطرات الدماء النازفة من باطن كفي ، وأحلم بفيء شجرة ، او جرعة ماء باردة .

كانت الشمس محرقة ، وسيل العرق يغسل جسدي ، ويُلصق ذرّات التراب الأحمر بساعديّ وقدميّ .

وكانت « حنة » تساعدني في ذلك اليوم .

كنا نعيش الحياة كلها ، بكل وجه من وجوهها . وكانت المشاركة أبرز تلك الوجوه .

ومن حنّة سمعت حكاية جديدة ، تسليّ سكان القرية ، في الأشهر التالية :

« فوّاز يحب مريم ... »

والقرية تحيا على الحب ، تعيش حكاياته في الفصول الاربعة ، ولكنها تأبى أن تسمع أخبار الحب .

وسمع أبو مريم الحكاية ، ثم أقفل دون مريم الابواب .

وختمت حنّة كلامها ، ونحن نتربّع فوق التراب

الناعم، ونستعد لفتح «الزوادة» : «شو قولكن... معقول يجوزها لفوّاز ؟ »

فوّاز ... مريم ...

مريم ... فوّاز ...

ربطوا الاسمين، واندلعت النيران ... وراحت الحكايات ترجّع في أمسيات الصيف الهادئة .

كانت حلقات الجيران تنعقد على مصطبة أنجلينا ، وأقبلت حنّة توقد النار : «لازم حدن يحكي ... أنا من عندي ما بشوف إنها أحسن منو ... رح يجنّ ... ما عبيطلع من إيدو شغل ... »

ونفضت «أم سليم» منديلها ، وعادت تجمع تحته شعرها الرمادي الشعث : «من حظ امو إنها ماتت قبل ما يكبر ... »

وتنحنح شيخ الحي «أبو الياس» ، وأفرغ كلماته في الحلقة : «أنا بشوف الحق على أبو مريم ... لو كنت مطرحو بجوزهن وبستريح ... »

ولم يذكر أبو الياس فشل مسعاه حين ذهب ليطلب يد مريم لفوّاز .

لم يذكر كيف ثار أبوها ، وكاد يحطّم أثاث البيت حين تلفّظ أبو الياس باسم فوّاز .

ـ فوّاز ؟ ! مين بيكون هالكلب حتى أعطيه بنتي ؟ كيف بيسترجي يرفع بصرو لوجه مرْيم ؟ شوف يا خيّي بو الياس ، كرامتك عندي كبيرة ... بس هيدا شي ما ممكن يصير ... ما ممكن .

وحاول أبو الياس اقناعه ، وطرح ورقتـه الأخيرة : « ولكنه يحبها ، ومريم بتحبُّو ، و ... » ولم يكمل ابو الياس عبارتـه ، فقد انتفض والد مريم :

ـ حب ؟... كلب متل هيدا بيعرفْ يحب ؟... كل عمرو عايش بالزقاقات . يروح يتطلّع عا شغلي تنفعو ، ويترك بنات الناس .

وفي ذلك المساء ، سمعتُ جدتي تتمتم صلاتهـا ، وتؤكد على هذه العبارة : « نجنا من التجارب ! »

لاحقتني الحكاية لتقضّ عـليّ مضجعي ، وبقي سؤالٌ عنيد يطرق جدران كياني : ماذا جنت مريم ؟ وماذا فعل فواز ؟

وهل الحب خطيئة ؟

فواز عاش حياته دون عطف الأنثى . فقد ماتت أمه بعد وضعه بساعات .

ولم يسعفه مركز أبيه ليحيا في قلب المجتمع ، فعاش على الهامش نقطةً زائغة في عين القرية .

عاش مشرّداً على نتف من المحبة والعطف تجود بها نساء الجوار ، وفتات الخبز والزاد يحملها إليه ابوه في آخر النهار . لقدْ كان أبو فواز ناطور الكروم في القرية .

كانت الوحدة التي مرّ بها الطفل مريرة قاسية ، ولم تخفف من وطأتها فتوّة الشباب .

وفي يوم ، التقى مريم على درب الكروم ، وجلس يروي لها حكايات احلامه، ويفتّق الأغشية عن الإنسان الكامن في صدره .

ودمعت عينا مريم وهما تلثمان عينيّ فواز ، وتغرقان في الدماء الحارة النازفة من جراحه العميقة . ومدّ هو يده الخشنة يمسح بها الدمعات السخية .

يومذاك ، قطع الشابان مراحل بعيدة في جلسة

عابرة على حافة كرم. وكانت هناك أعين خبيثة تسجّل وجهاً معكوساً للصورة العذبة، لتلصقه على الجدران الحجرية الغبراء، في أزقّة القرية.

انعكست الصورة على حياتي انا، وراحت تشقّ لي السبل الغريبة الضيّقة.

أذكر يوم طرقت مريم بابنا، ودعتني الى نزهة في الكروم، فمنعتني أمي من مرافقتها، وأصرّت على حجزي في البيت:

ـ انك لا تشبهين الفتيات الطائشات. انت تختلفين عن الجميع.

وأيُّ أم لا ترى فتاتها في هذه الصورة؟

وأخلصت أمي لرأيها، حتى بتّ اعيش أفكارها، وصرت أختلف عن الجميع.

كانت غلالة من الحزن الدائم تلفّ نفسي. وغارت خطاي في دروب موحشة، دروب الوحدة القاسية.

لم تفهم امي لماذا أنزويت أبكي في عرس

« سعد » .

سعد إبن عمي تزوّج .

القرية كلّها قامت تهلّل ، وتطرب . كانت فقاقيع المرح تطفو على وجه الكاس ، في الجوّ ، تلوّن الأصباح السعيدة والأمسيات الحالمة .

أما أنا فانزَويت بعيداً عن هزج الراقصين في عرس ابن عمي .

كان أبي يرقص في الحلقة . كان يضرب الأرض بقدميه مرحاً . وتحلّقت الصبايا يهزجن ويزغردن . ولمحتُ أمي من بعيد تصفّق راضية ، وقد غمرتها موجة مخدرة من الانشراح .

وطاشت الرؤوس في حماسة الفرح الجارف ، وتسارعت أنفاسي ، فهربت من العرس ، ولجأت الى غرفتي ... أبكي .

إن حزني يتكاثف ويُرغي كلّما انطلق الناس من عقال الصمت ، يرنّمون أناشيد الحياة ، ويهلّلون متجاهلين الزمان المتربص بهم .

رأيت فوّازاً ، في حلقة الشباب ، شريداً طريداً .

كان يحاول أن يفرض نفسه ويُثبت وجوده بينهم. وبقيت الحلقة تبصقه، والجماعة تسلخ كيانه عن وجودها، وعيون الصبايا تتغامز عليه بخبث مفضوح:

«أين مريم؟»

«عقبال فرحتك يا فواز!»

«شدّ الهمة يا فواز!»

أوى الناس الى بيوتهم، يلملمون فُتات المرح، يخزنونها في مساكنهم الضيّقة. وبقيت حلقات صغيرة منعقدة على الشرفات والسطوح.

وفجأة دوّت في الجو طلقات نارية، وسُمع صراخ امرأة يشق حجب المساء. ثم همد كل شيء.

ماتت!

مريم ماتت.

قتلها فوّاز.

كلمات قليلة كانت الخاتمة لحكاية حب عاتٍ.

فوّاز يئس من الانتظار، فَقَدَ اتزانه في حفلة الزفاف، فانطلق يدور حول منزل مريم ويدور...

روى الذين شاهدوه أنه كان يلطم وجهه ويبكي، ويضرب جدران المنزل بقبضتيه، ويمرّغ وجهه بالنتوء الصخرية القاسية.

و «أبو هاني» اعترف أن فوّازاً اشترى من دكانه زجاجتين من العرق أفرغهما في جوفه دفعة واحدة.

وظلّ فواز يدور حول بيت مريم، وأفلتت من بين شفتيه صرخة يائسة: «يا مريم!»

كانت مريم تقف خلف النافذة، تسمع وقع خطاه. فأطلّت برأسها تبحث عن مصدر الصوت. فانقضّ عليها بقبلة نارّية من فوهة مسدسه.

بقيت الجثة وقتاً طويلاً ممدّدة في الزقاق الضيق، تستحم بالدماء الحارة، والناس من حولها يتفرّجون في خبال، وصوت ذبيح يرتفع على همس الجماعة:
«يا بنتي!»

لم تتحرك جدتي من فراشها حين سمعت قرع الجرس باكراً .

لم تخرج الى الباب كعادتها ، تسأل : « لمن يُدَقّ الجرس ؟ »

وبقي الجرس يئن ، يخلع شرايين قلبه في دقّات بطيئة متواصلة . وظلّ رنينه يحفِرُ في سمعي ، ويمتزجُ بنقر حبّات المطر على الزجاج القريب ، وعويل العاصفة الهائجة بين الكروم .

كان الموت يخيّم على كل شيء .

وبقي الزقاق الضيق خالياً من الناس . ولم أسمع

حوافـر البقرات تنقر الأرض في تلك الصبيحـة الكئيبة .

كنت ألمح ، بين حين وآخر ، سِرباً من النساء تلفّعْن بالسواد ، وسرن بصمت وانحنـاء ، كسرب غربان يشقّ سبيله بلهفة الى حيث اندحرت الحياة ، وبسط الموت أجنحته القويّة .

ومـن طرف الشارع بدت مِرسال تترنَّح في مشيتها تحت زخّات المطرة الأولى .

فتحتُ النافذة لأناديها ، فهفّت إليّ رائحة التراب ، ذكيّة ، حادّة ، وشعرت بثقل الغيوم الرمادية يهبط على صدري .

كانت أشجار الزيتون مستسلمة بكآبة لرشق المطر ، ولم تخفِ سطوح القرميد الحمراء بريق ارتياح للغسل الصباحي .

عانقتني مِرسال ، وضغطت يديَّ بيديها ، فسرت اليّ رعشة باردة يشوبها القلق والخوف . ولبثتْ واقفة امامي .

وهبّت علينا من النافذة نسمات باردة ، تحمـل

عويل النسوة .

حين تشدّك الحياة الى صدرها ، ضمن حدود القرية الصغيرة ، تربطك بكل عصب من أعصابها .

أنت حيٌّ في جذور السنديان الجبار ، في براعم اللوز ، في تموّج الحقول الخضر ، في وجود الناس الذين يلتصقون بكيانك ويلتصقون ، كما يلتصق بعض جدران المسكن الواحد ببعضها لتحفظ بقاءه .

وعندما تنتهي من مرحلة العيش ، وتشاء عاصفة عنيفة أن تقتلعك ، فهي تقتلع معك أحد الجذور المتعانقة تحت التربة القروية .

وحين اجتمع الناس ، في ذلك النهار ، ليودّعوا مريم ، كان كلٌّ منهم يتحسس المكان الفارغ الذي خلّفه جذرٌ عنيد شدّته مريم معها في رحلتها الى ما وراء المجهول .

كان الرجال يتوزّعون فرقاً ، ويطوفون في صحن الدار ، والساحة القريبة ، يردّدون ألحان الحداء الحزين ، وتتلاقى اصواتهم او تتنافر . وهم في ذلك

كلّه يدعون الطبيعـة ومخلوقاتها لتشق معهم حجب الصمت ، وتغرس فيها أنغاماً جريحة نائحة ، وتمسح مثلهم العرق الغزير المتدفق فوق وجوههم وصدورهم .

ويقف الحادون لحظات ، يلتقطون أنفاسهم ، ويستعدّون لنغم آخر أشد اثارة ، بينما تبقى ألحـان الندب النسائي تئن عبر النوافذ المشرعة .

أبتْ مِرسال إلّا ان تحمل وردة حمراء ترشق بها نعش مريم .

ووقفنا في باب الردهة الكبيرة وقد تقلّصت ابصارنا وجمدت حركتنا .

سمعت مِرسال تشهق بالبكاء . وهربت الدموع من عينيّ ، فقد شغلتني اللوحة عن البكاء .

لا أذكر كيف بدت مريم بعد الموت .

كانت تقبع ، هناك ، خلف جدران بعيدة في عالم الصمت الكئيب .

وراحت ألواح النعش ترتفع في عينيّ وتكبر ، حتى ضاقت الردهة عن استيعابهـا . وظلّت الألواح

الخشبية تتضخّم بالجسد الساكن، وتفصله عن عالمي وتبعده ...

وبقيت ألواح الخشب تتقارب وتتدافع لتشقّ الهوّة العميقة بين عالمي الحياة والموت.

وظلّ النعش يحفر في عيني، فوق الأرض الفسيحة، تحت شجرة السنديان، وبين المقابر الرهيبة.

ورأيت بطن الأرض ينشق، ويتسع، ثم يعجز عن ابتلاع الصندوق المقفل.

عدت من رحلتي البعيدة، أتيه في أرجاء القاعة الصاخبة، واتأمل الوجوه الشاحبة الباردة. وجوه قلّصها الموت، وغرس فيها براثنه الحادة.

كانت أم مريم تشدّ شعرها وتهزّ رأسها، وقد أفلت زمامه من يدها.

وظلّ الرأس يتحرك كخطّار الساعة، ومن خلفه ندّابة القرية، «نعيمة»، تجمع كلّ إمكاناتها ومواهبها لتلهب الأعصاب، وتهيج الدموع.

كانت نعيمة تنقل عينيها، ببراعة وخبرة، بين

النساء تنتقي منهن العاطفيات وتندب موتاهن ، فتقضي بذلك على رتابة الجو ...

وكانت تنجح دائماً ، فترتفع أصوات ذبيحة من صدور مكلومة ، صهرها الحزن في أفرانه الملتهبة .

بقيت الندّابة تربط بين المواضيع المتنافرة بمهارة فائقة ، وترجع الى ذكر العروس ، الى ذكر مريم .

اللوحة تعيش في ذاكرتي بكل حرارتها ، بألوانها القاتمة ، برائحة العرق تتنفسها أجساد أجهدها الانفعال .

إنها تختصر حالة الشرق حين يستسلم للعاطفة ، ويدور في محرابها ناسياً كيانه ومنطقه وتفكيره .

هربنا من بؤرة الشقاء . ودّعنا الاتون الجهنمي . وخرجتُ مع مرسال نتنسم الحياة خارج الردهة .

ولمحت سرباً من الاطفال تفرّق فوق السطوح المجاورة .

إن المشهد يتردّد عدّة مرّات في العام الواحد . وفي كل مرّة ، يقف الأطفال في صفّ الكبار يشاركونهم وداع الحياة .

هرعت الى أقصى غرف المنزل ، أقفل النوافذ ، أقفلها دون الاصوات البعيدة النائحة . ولكنّ أصواتهم ظلّت تدق أعصابي، وتطرق أذني كدوي عاصفة جبارة .

حتى الساعة تعود أصداء النواح تزمجر في أذنيّ ، مخترقة جدران الصمت الزمني الرهيب .

وسمعت مرسال تتمتم : « يا لقبح الصورة !... إن الأبخرة المتصاعدة من نيران الحبّ تكون شفافة ، زرقاء ، وردية ... وها أنا أرى اليوم السحب الكثيفة السوداء تمسح وجه الكون ، وجهي ، وتطفىء نور عيني ... أصحيح ماتت مريم؟ قتلها الحبّ ؟ قتلها فوّاز ؟ »

كانت مرسال ترتعد ، وقد جحظت عيناها ، وشحب وجهها ، وغاب بصرها في الأفق البعيد ، عبر النافذة . وبقيت شفتاها تبوحان :

- راجي سيهجر القرية . سيهجرني يا منى ، وابقى أتلمّس الجدران التي بنيتها بأحلامي ، وأحيا في هيكل الوهم والخيال .

لقد زارنا بالأمس ليقول لي ذلك . لكم كان

قاسياً !

وقف في الباب بقامته الفارعة ، وسألني عن أبي . ثم جلس الرجلان يتحدثان ، فأدرت لهما ظهري ، لأفرغ من كيّ بعض الثياب .

تحدثا طويلاً عن الموسم وعن إقبال الزيتون هـذا العـام . ثم خرج أبي ليجيب نـداء جارنا ، وبقينا وحدنا في الغرفة .

وهدر صوته في أذني : « مرسال ! »

جمدتُ في مكاني . جمدتْ أناملي فوق القميص الدافىء . ولبثتُ أحدّقُ الى وجهه ، وقـد تكوّم وجودي في عينيَّ .

تمنيت في تلك اللحظة لو يقترب مني ، ويجمعني بين ذراعيه ، ويهمس في أذني كلمات أتوق الى سماعها .

وعاد صوته يتلكأ : « مرسال ، إن حدود القرية تضغط أعصابي ، تكاد تقتلني ، أنا مسافر يا مرسال . إن هجري سيحطّم قلب أبي ، ولكنّ الواجب ينسينا العاطفة . »

وعدت أعمل . عـادت يداي تعملان كالآلة ،

منفصلتين عـن جسدي ، لاصقتين بالمكواة . وظلّ صوته يهدر من مطارح بعيدة : « أوصيك بالشجاعة ، يا مِرسال . إن الحياة تدعوك لتتقدّمي ، وتغرفي من كنوزها الكبيرة . »

وظلّ صوتُه ينأى ويبتعد : « وستلقين رجالاً كثيرين . قد يحبّك أحدهم أكثر ممـا أحببتك ، فلا تجفلي . أنا أحببتك ، وأنت تعلمـين ذلك . ومهما حدث فستبقين ، في ذاكرتي ، أحلى ما في ذاكرتي . وتذكري ، يا مرسال ، دائماً إنّا التقينا هنا يوماً . »

حوّلت مِرسال عينيها عن النافذة ، وقد فرشت فوق شفتيها بسمة تحدٍّ :

ـ ضعفتُ كثيراً ، يا منى ، وانهارت مقاومتي فبكيتُ ...

كانت الدموع الحارّة تحرق خدي ، وتتدحرج فوق يدي ، فتبلل الثوب أمامي .

وبقي هـو جامداً في الزاوية ، ونظراته تخرق ظهري وعنقي .

وحين ضغط يدي ، مودعاً ، شعرت بانه هدم

قصور أحلامي الخضراء . وقفزتُ الى النافذة ، برغم إرادتي ، وبقيت أتامله يغيب عن ناظري بين الأزقة المتعرجة .

مريم لم تشهد الفصل الأخير من مأساتها . أما أنا ...

وعادت مِرسال تردد قهقهات هستيرية جريحة . وتلفَّتُ حولي متضايقة ...

إتكأت على الجدار ، فتلاشت صلابته ، لتذوب في « جورة » بدون قعر ...

لم أدر كيف أخفّف من آلام مِرسال . فقد كنتُ أخاف من تجسيد الحب في إنسان . وهكذا بقي الحب ، فارساً ملثماً ، يطرق عالمي في اللحظات المقفرة ، في ساعات الوحدة والفراغ ، يتمشى معي في الدروب الضيقة ، يتلوّى مع الحروف السود في كتبي ، ويملأ صدري نشوةً لا توصف ، فتنتعش خطواتي ، وتسير لتحقق رحلتها في سبل الحياة الوعرة .

في الأيام التالية غابت مرسال عن فكري، وبقيت تفرش وجهها أمام عينيّ.

كنت أنصرف الى القراءة فتطل عيناها من بين السطور ضاحكتين، دامعتين، وتنهمر دموعي، فأمسحها وأهرب الى مكان آخر.

وداهم الشتاء بيتنا باكراً في ذلك العام. وكان الزيتون ما يزال مكوّماً في أكبر غرف الدار. وأمي لم تكن بعد فرغت من إعداد المؤونة، فهي لذلك لا تفارق الموقد، ويدها باستمرار فوق قدر تغلي.

أمي! مصنعَ الأطايب كانتْ.

شددتُ نفسي الى الحلقة الصاخبة حيث تجمّعت حنّة ونجلا والجارات يساعـدن في اختيار الحبات السمينة من الزيتون الاسود الشهي .

والنساء في القرية ينتظرن المواسم التي تجمعهنّ حلقات تتعانق فيها الأيدي وتعمل ، بينما تمضي الالسن في تنميق الاخبار .

القطاف موسم .

جمع الزيتون موسم .

تنقية البرغل ، وفرك الكشك ، والأعراس ...

أذكر جيداً عرمة من الغلّة ، من خيرات أرضنا ، ترقد في صحن الدار ، ومن حولها حلقة الصبايا ، وابي يطلّ بانشراح ليلقي التحية ، ويعابث الحلوات ، او يسردُ لهن حكاية عذبة تستثير الهمم .

واخي سمير يخترق الباب بنظرات خجولة ، وقد عاشت في عينيه احلام كثيرة ، وعشرات الأسئلة الحائرة .

كان وجود الصبايا يقلب وجوده ، ويفرش لوناً من المشاعر المتنافرة على محيّاه .

لقد بدأت أناملـه تخشوشن ، وأطلّت بعض الشعرات فوق شفته العليا ، متردّدة ، واجفة .

ويهرب سمير من الباب .

أكاد أراه الآن . وفي هربه يؤكد انه يتمنى لو يبقى .

ثم تعود أمي ، وقد اعدّت للصبايا حلوى لذيذة ، وقهوة ساخنة مطيّبة بحبّ الهال : « فترة راحة يا صبايا » .

أمي ! إن وجهك يفرش الراحة أمامي ، في سُبُلِ غربتي في هذا الوجود .

كيف تعلّمتِ هذا الفن يا أمي ؟

كيف تقوين على عجن الحياة بين يديك ؟ على صنعها لذيذة ، طيّبة ، بسيطة ، كما تصنعين القهوة ، و « مربّى » السفرجل والتين ؟

وترتاح الصبايا . وتسود الجو روح الدعابة والمرح . وتُقلب الفناجين الفارغة فوق « الصنية » ، ثم تمتدّ الأيدي بشغف ، وتتطلّع الأعين حنّة بشوق :

« طالعي بختي يا حنّة ! »

« شو قولك ، جايي العريس ؟ »

وترسم حنّة مسحة الجدّ على وجهها العادي القاتم ، وتتناول الفناجين بالدور ، ثم تروح تذبش فيها الأسرار .

أسرار تضيق بها الصدور ، فتتخذ من كشف البخت وسيلة للتنفس .

وتمضي حنّة في جولتها ، تمزّق للبراعم الحلوة حجبَ الغيب ، وتحقّق الأحلام .

ويجيء دوري .

كم كانت أحاديثك عذبة ، يا حنّة ! ومع ذلك بقيتْ تعذّب نفسي ، وتقلّص روحي .

كان الكلام يخرج من بين شفتي حنّة سائغاً ، جذاباً ، فتعبّه أذناي بنهم .

يا للغد !

يا لسحره وشوقنا ابداً الى استعجال قدومه !

ـ اسْمعي يا منى ! بالك مشغول ، فيه قضيّة محيَّرتك .. شخص غريب ... يمكن يصير قريب ...

وتتوقف حنّة لترشق أمي بنظرة ذات معنى ،

ثم تتابــع كلامها : « انت حائرة يــا منى . ولكن حيرتك تنتهي بخير . وأمامك مستقبل سعيد ، ومال كثير . »

هكذا كانت حنّة تتابع تمثيل دورها في حياتنا .

ثم تلتفت الى امي : « شو ، يا ام سمير ، عطيتو قول ؟ مــا عاد في لزوم تخبّو شي ، الضيعة كلهــا بتعرف . »

وتزمّ أمي شفتيها تحاول أن تبتلع بسمة طارئة ، لتصطنع دور الجد : « متل ما الله بيريد ... كل إنسان بياكل نصيبه ... إن كان لُو نصيب عنّا ، أهلاً وسهلاً ... »

ولم تصمت حنّة . بقيت تخــز وجودي بابر لسانها : « يا منى ، اهتمي بوجهك شويْ . رتبي حواجبك ، ورشّي شوية بودره . »

ثم تلتفت الى امي : « ما بتلبسْ منى صدرية ، يا ام سمير ؟ لا تستحي ، يا منى ، شو بكِ احْمرّيتِ ؟ شوفي نجلا كيف بتضل على آخر موضة ... وانتِ ، عندك سبب ... »

وبقي صوتها يهدر وقد نصبت بيني وبين وجودها ستاراً كثيفاً لا تخترقه الأصداء .

عندك سبب !

يا لهذه المرأة الساذجة ، كيف تقدر أن تفهم؟

كيف تستطيع أن تحلّق الى أجوائي العليا ، الى عالم خلقته ، وبيديّ بنيت جدرانه ، وأقمت فيه جنّة سعادتي ؟

كيف تفهم أن عينيّ شاردتان الى آفاق بعيدة ... بعيدة عن حدود القرية ؟ وان قدميَّ تتحفزان الى الهرب ، الى حيث لا أجد من يخطّط مصيري ؟

ويا أمي ، انها مشيئتي أنا . أنا أقرر غدي . وبهذه الأنامل النحيلة سوف أبني حياتي . أقلع شوكي بيديّ . أتعثر بين اكوام الحجارة ، في الدروب الموحشة ، ثم أنهض .

ولكن أتسمعين ، يا أماه ؟

كنتِ صامتة بالأمس ، حين زارنا ذلك الكهل ، يجرّه أبو الياس : « أميركاني ... وغني . وشو بدك اكثر من هيك ؟ »

تلك كانت مقدّمة ابو الياس .

وكدت أنفجر ضاحكة ، وأنا أبحث عن صورة تشبه الرجلين : كان أبو الياس يتحكَّم بتصرّفات الكهل المسكين كما يفعل صاحب القرد .

أصابني غثيان ، وأنا أستمع الى المتأمرك ، يحاول التودد اليّ : « قرِّبي لجنبي يا حلوي . »

وردَّني خجلي واللطف الذي كسبته منك ، يا اماه ، عن ركله .

كيف تفهمين ؟

كيف تفهم حنّة ذلك ؟

وبقي يمضغ كلامه التافه ، ويرطن ، ويعرج في حديثه بين عربية مهشَّمة ، واميركية ممسوخة ، وأنا في الزاوية ، أبتلع غيظي ، وأسكِّن غثيان نفسي ، وأحاول ان أبقى الفتاة التي يفخر بها والداها .

وحين غادرنا ، وقفتُ في الباب ، أعذّب نفسي بشكله . ثم لم أعد أعي شيئاً .

كانت المرّة الوحيدة التي غبت فيها عن الوجود .

وحين عدت ، كنتِ قربي يا اماه ، تتلمس أناملك

الراجفة جبيني وفمي . ولمحتُ أبي يروح ويجيء في الغرفـة ، ويضرب كفاً بكف ، ويردّد كلمات لم أفهمها .

اقـترب ابي مني ، وجثا عـلى الارض ، قرب فراشي :

– انتهى كل شيء يا حبيبتي . عودي الينا . لن يفاتحك أحد بهذا الموضوع بعد الآن .

شكراً لك يا ابي .

وأين يدك يا أماه لأقبّلها ، أمرّغ وجنتي فوقها ، أبلّلها بدموع عيني ؟

طويلة كانت أيام اغترابنا .

الساعة ، فوق طاولتي الصغيرة ، تطرق أبواب الزمن دون كلال . وأحدّق الى عقاربها الزاحفة ، أستحثها على المسير .

ثم أقلب التقويم اليومي ، أعدّ الأيام والاحداث .

اي احداث ؟

ونحن ، الى أين نمضي ؟

وماذا نترك بعدنا ؟

وأسمع قهقهات يتردّد صداها في عالمي المقنّع : إنهم يضحكون خلف النوافذ المغلقة .

الجيران يصرخون .

الموسيقى تصدح .

حفلة راقصة فوق سطح العمارة . شاب يغازل صديقته على الشرفة . ويمزّق جوف الليل صراخُ طفل ممغوص .

هكذا يقف الناس في المدينة متقابلين . يقفون أغراباً ، يحدّقون إلى وجوه غريبة ، وجوه ربما التقوها في عالم سابق ، أو لم يعرفوها عمرهم .

ومن خلف هذه الأمواج الصاخبة ألمح مِرسال .

كانت ترتدي ثوبها الأحمر الجديد ، في ذلك الصباح ، وقد ضفرت شعرها الجميل ، وتركت الجديلتين تسترسلان فوق كتفيها . ولاحظتُ ان خضرة عينيها ازدادت عمقاً ، وقد انعكس فيهما صفاء الصباح ، فزادهما تألقاً ، وشروداً .

كنا ننتظر يوم الأحد طوال الأسبوع . إنه يوم لقائنا في الكنيسة . وكانت أيام الاسبوع تمضي ، رتيبة ، باهتة الالوان ، نطويها غير عابئين بالدقائق ، بالساعات ، بالأيام والسنين .

نطويها ، نطوّقها بسواعدنا وقلوبنا ... نحبُّها .

أسرعتُ بتسريح شعري وارتداء ثوبي الجديد ، الثوب الذي تحفظه خزانتي الصغيرة للآحاد والأعياد ، لأيام خاصة ترفرف الغبطة في أجوائها ، ويسمح فيها القرويّــون لأنفسهم بالانطلاق ، والدعابــة ، وذرّ العطر .

كانت أرض الشارع الضيق لا تزال رطبــة ، فراحت أقدامنا تغوص في حدقات تتفتح على صدر الطريق .

كنا نتجنّب الوحول ، فنقفز فوق حجر ناتىء ما يزال ينتفض بعد غسل الامس ، أو ندوس خشبة مبلَّلة وقعت من يد طفلٍ في طريقه الى المدرسة .

اطفال قريتنا الصغيرة تلمع وجوههم في عيني الآن .

كان شوق غريب يقودهم أسراباً ، في الأصباح الباكرة ، في الضباب ، وقد لفّوا رؤوسهم بقبعات من الصوف حاكتها أمٌّ لهم أو أخت . وحمل كلٌّ محفظة

من قماش ، تحوي الكتب والاقلام ، واحتفظ بيد فارغة لتحمل « قرمية » السنديان .

أرى ايديهم وقد احمرّت وازرقّت تحت لسع الصقيع ، وبقيت متشبثة بالخشبة . إن المعلم قاسٍ ، ولا يرضى بأن يؤويهم في مدرسته دون « زوّادة » الدفء هذه .

وهكذا تهبُّ عليهم العواصف ، ويلسع البرد أجسادهم ، وينصبُّ الماء فوق رؤوسهم ، وتبقى الايدي متعلقة بقرامي السنديان الصغيرة .

في ذلك الصباح اشرقت الشمس سخيةً ، مرحة ، متحررة من قيود الضباب ، وراحت أشعتها تنعكس على سطح القرميد الوحيد في طريقنا ... على قلوبنا .

انزلقت عيناي على الأحمر المستحم صوب بستان قريب . كانت أشجار الزيتون تنتفض ، ترفع سواعدها بابتهال ، وبراحة تشبه راحة تعقب الوضع ...

لقد انتهى الموسِم . أعطت الأغصان خيراتها .

سكبتها في معاصر القرية، في خوابي الفخار الكبيرة.

وكانت مِرسال تحثّ الخطى بقربي صامتة، هادئة.

وهكذا بدت مِرسال في الأيام التالية، الايام القليلة التي قضيناها معاً قبل ان نفترق.

وكانت تخرج أحياناً عن ذلك الهدوء، فتثور وتبكي، وتنسى نفسها في بحيرة من القلق الشريد.

صفعت وجهي رطوبةٌ باردة اذ وطئت قدماي عتبة الكنيسة، رطوبةٌ محمّلة برائحة البخور والمرّ.

إن هذه الرائحة تنفذ إلى خياشيمي في هذه اللحظة. تتصاعد من الأوراق الصفراء، الأوراق التي احتفظت باغاني مِرسال، وبقيت مطوية في محفظتي القديمة.

« خذيها »، قالت يومها مِرسال: « خذي هذه الأوراق، واحفظيها لي... ربما عدنا إليها يوماً. »

كانت تقف تحت شجرة الازدرخت في دارنا، تودعني وتبكي، وتشيّع الحيّ بنظرات غشيتها الدموع.

أتوقف امام أوراقها الآن، وقد اعترضتني كلمة

محتها دمعة ، أو أسيء رصف حروفها ، ويغشاني الحزن العميق وأنا اراها لا طعمَ لها ولا لون ... وأحاول طويلاً أن أصبّ فيها الحياة ، وأجتلي السر الذي حوّلها ، كما كنت أحاول تماماً ان أنزع الأسرار من وجه مِرسال في تلك الصبيحة البعيـدة ، ونحن جنباً الى جنب في محراب الصلاة .

لقد سُمح لنـا أن ننضمّ الى جنـاح النساء في الكنيسة . فجلسنا خلف جدار من الاخشاب المشبّكة ، نرى الكاهن وباب الهيكل ، ونبقى سرّاً غامضاً في عالم الرجال .

ولاحظتُ مِرسال تقترب من جدار الاخشاب ، وتغرز عينيها في إحدى الفتحات الصغيرة ، تصوّبها نحو الهدف الذي أخطأته .

بقيت الكنيسة تسبح طوال ساعة في الرطوبة الباردة ، وقد حُجبت عنها حرارة الشمس ، وأنفاس المصلّين .

إن الناس يسجدون ، طوال فصل الشتاء ، حول

موقد يوزّع الدفء، ويهدهد الأرواح، يغيّبها في شبه خدر.

لمحت، في طرف الجناح، جارتنا أنجلينا. كانت تقف جامدة، وقد مسحت وجهها بقناع من الاكتفاء الغبي.

كاد جناح النساء يكون خالياً لولانا وحفنة من عجائز الجوار: أم الياس تغطي رأسها وكتفيها بشال من الصوف الاسود، وأم سليم ترتدي معطف الفرو القديم الذي حمله اليها ابو سليم لدى عودته من المهجر...

ونجيّة...

من كانت نجيّة؟

عرفتها من خلال الأحاديث الهامسة، أحاديث كانت تجمع النساء في حلقات لا يُسمح للبنات بدخولها...

وكانت أمي تحذّرنا من المرور قرب منزل نجيّة.

وظل حدسٌ خفي يمنعني من التلفظ باسم المرأة أمام أحد.

وعاشت نجيـة لغزاً مبهمـاً في حياتي . كانت خطواتي تقودني ، في كثير من الاحيان ، الى محاولة حل العقدة واكتشاف السر ، فما أكاد أصل الى شبه معرفة حتى أذكر كلمات تسرّبت الى سمعي عبر أحاديث حنّة : « الكلبة ... لازم يشّحطوها من الضيعة . »

وبقيت دار نجيّة ، في طرف القرية ، ركناً يخيّم فوقه ضباب كثيف من الوهم والغموض .

وأخيراً فهمتُ مكانة نجيّة في القرية ، علمت لماذا تكرهها النساء ، ويفتح لها الرجال أذرعهم ...

كانت حنّة تسرد الحكاية لأمي ، وأنا في طرف الغرفة أتشاغل بقراءة كتاب .

وكانت الحماسة تختلج بين كلمات حنّـة ، وهي تؤكد أن الأمر لم يعد يُطاق ، وعلى القريـة أن تتخلّص من هذه الفضيحة .

والحكاية أن « أسما » ، زوجة « فريد » ، كانت تمرّ قرب منزل نجيّة حين لمحت شبحاً يخرج مـن بابها ، ملتحفاً بالظلام ، ثم يقفز الى الزقاق بسرعة .

كان الضباب يفرش قناعه الكثيف فوق المساكن .

ومع ذلك ، فقد لاحقت أسما الشبح ، وعرفته ، فاذا هو زوجها ، فريد .

حكايـة حنّة جعلتني أفهم أشياء كثيرة بعـد ذلك .

فهمت لمـاذا كان الرجال يتجمعون في الطريق ويتضاحكون كلّما مرّت نجيّة ، أو يقتربون منها ويعابثونها ، ثم يودّعونها بقهقهات فاجرة ... وتبقى أصداء الضحك العابث تدوي خلفها ، حتى يغيّبهـا منعطف ، أو يخفيها جدار .

في ذلك الصباح ، كانت نجية تجثو على البلاط البارد ، تقرع صدرها ، وتبكي .

كانت دموعها تنسكب فوق خدّين مقرّحين ، وتتدحرج على صدرها ويديها . وترتفع اليدان الى شعرها تشدانه وتحاولان اقتلاع جذوره .

ويهزّني نشيجها ، فأحسّ أنني أستحمّ في بركة من الدموع الحارة .

كانت دموع نجيَّة سخيّة جداً في ذلك الصباح .

كانت تكفي لغسل خطايا العالم .

انتقلت نظراتي من نجيّة الى الكاهن . رأيته يدور حول المذبح ، وهو في « بذلته » المزركشة بالقصب والمخمل ، ويردد الصلوات برتابة وسرعة تذهلان .

كانْ دفق كلامه يهرب من آذان الناس ووعيهم ، ويستقرّ في وجودهم نغماً غامضاً ساحراً .

بقي الكاهن يدور حول الهيكل في شبه ذهول ، وقد انغمس في الجو الى حدٍّ أنساه أن يصغي الى أقواله ... وكنت أحبّ ان أفهم الكلام الذي يخرج من بين شفتيه ، ويغيم في كثافة البخور ، وهمهمة الأصوات المؤمنة .

ولكني كنت أعجز عن فهمه ، فاستسلم للغموض الساحر في الجو ، وأعبّ ، بنهم ، شذى البخور ، وتجرع أذناي اللحن الشرقي الساحر ، اللحن الذي تذوب النفس في حرارته ، وترتفع في خفّة الدخان الى فوق ... الى أجواء علوية لا يطالها وعي

الانسان .

قالت مِرسال، ونحن نغادر المعبد :

– لم أعد أنام يا منى ... أنا أعيش في دوّامة من القلق والحيرة . وفي بعض الاحيان، أنسى كيف أنقل خطواتي .

القلق ينهش صدري، ويعقل لساني ، ويشلّ حركتي .

لقد عشت طويلاً مع هذه الاحلام الوردية ، مع آمال واسعة . وفجأة هجرتني تلك الاحلام، تاركة يدي متشبّثتين بالفراغ .

حتى الصلاة لا تفيد يا منى . فأنا عاجزة عن الغوص الى عمق ذاتي .

وبقيت مِرسال تهذي ، والطريق أمامنا تمتد ، وتبتعد عن حدود القرية . ولم أحفل بحذائي الجديد ، فتركته يغوص في التراب الموحل .

لقد تجمّع كياني في أذنيّ .

كانت اعترافات مِرسال تمتزج ببوح الأرض .

وكنت أحسّ بما يشبه الانعتاق من أغلال الكيان البشري . وحلّقت نفسي مع الأبخرة المتصاعدة من باطن الأرض ، من التراب الرطب ، مع اللحن الشرقي الحبيب الذي حفر وجوده في كياني ، منذ ذلك الصباح ، وظل يمدّ أسلاكه السحرية ، يشدُّني إليه ويعصرني ... يصهرني في ذراته الخفية .

« أبوه !... أبو راجي ! »

همست مِرسال باسمه، وهي تُشير باصبعها الى حقول القمح الشاسعة على جانبي الطريق .

أبوه !

كان يكفي أن تقول ذلك لأعرفه . القروي لا يلفُّ أو يتفلسف على الطبيعة . فساعة يطل المولود البكر ، يتوقّف كيانه الفرد ، ويصبح أبا فلان ، أو أم فلان ، ويلاصقه النعت ، يرشق سمعه من أفواه الآخرين ، يفترش أديم جسده ، يأكل معه ويشرب وينام ويقوم .

ويمتلىء صدر الأب فخراً ، وينتفخ اعتزازاً وهو يسمع الصحب ينادونه : أبو الياس ، أبو منصور ، أو أبو حسن. ويسير في شعاب الحيـاة لينطبق عليـه النعت باخلاص وجدارة .

بدا التحوّل جليّاً في وجه الرجل . لمحتُ القنوطَ وخيبةَ الأمـل يجتمعان فوق رأسه ، في الأخاديـد العميقة على صفحة وجهه ، في امتداد أنامله .

أجل ، لم يبقَ أبو راجي الذي عرفته .

كان ذاك مضرب المثل في النشاط والجلد : قبيل الفجر يسمع الجيران صوته ، وهـو ينادي راجي ، ليرافقه الى الحقول ، ولا يحول دون ذهابه فصل حرّ أو برد .

ويمضي حماره الصبور تحت حمل البذار والزاد ، فيوقظ بنهيقه النيّام في المساكن الممتدة عـلى جانبي الطريق الرئيسي في القرية .

كان أبو راجي منبّه القرية .

لم يكن هنـاك من يسبقه في الغرس ، وفي القطاف . واذا اضطره العمل الى النوم في الحقول ، لا

يأوي الى بيته ، بل يبقى مع الارض ، يسامرها ، يعطيها ، يصل شرايينه بعروقها ، فاذا هما واحد .

« يعطيك العافية عمّ أبو راجي ! »

تلفّتَ وقد جفّله الصوت : « أهلاً بالصبايا الحلوين ! »

كان غارقاً في الأتلام الضاحكة ، ويداه غائصتان في التراب الأحمر الرطب ، تنزعان منه حصى وقحة تجرأت فطفت فوق الارض الناعمة ، فاغتنم ابو راجي يوم الصحو لينقّيها ، قبل أن تنبت حبات القمح .

لا ، لم تكن في حركاته الحماسة التي عهدناها . ازداد عمق الاخاديد في وجهه ، وانطفأ شعاع عينيه ، وتهدّلت الكوفية على كتفيه تشارك في كآبة اللوحة .

لم يداعبنا أبو راجي كما كنا نتوقع . بقيت عيناه غائصتين في الارض ، تفحصان حفنة من التراب الناعم وكأنهما تعرفانه للمرة الاولى .

لكزتني مِرسال لابدأ الكلام معه . وكنت أفضل

لو أصمت ، واقترب اشاركه في تاملاته .

ـ ما كنت في القداس اليوم ؟

وجاءني جوابه زفرة عميقة :

ـ الصلاة للصبايا والشباب ... نحن ولّت أيامنا يا بنتي ... هيدي أيامكم . الحاضر والغد بين أيديكم ... وأنا ما بقالي غير هَيْدي ...

ورفع حفنة تراب بين يديه ، ثم ذرّاها في الهواء ، فتساقطت في خط مستقيم .

كانت الأرض مرجعه الأخير ، وأصدق من يصغي الى شكواه ، فهل لجأ اليها يشكو وحيده ؟ هل صلى للأرض وابتهل اليها ، مؤمناً ، لتعيد راجي اليه ، اليها ؟

وتابعتُ :

ـ أقادم راجي ليعاونك ؟

وهزّ الاب رأسه . ثم اطلق نظرة الى الأفق البعيد :

ـ هناك . راجي هنارَ ... خلف تلك الآفاق البعيدة .

ومضى في حديثه كأنه يخاطب نفسه :

ـ كان معي ، بالأمس ، رفيق الرواح والغدو . وكان وهج شبابه يلفح هـذه الربى ، يلفح وجهي ، فاعود أحيا شبابي في سمرة وجنتيه .

لقد ضاقت به هذه الارض . ضاقت بطموحه . لم يعد يطيق رائحة التراب . بات صوت المعول يمزّق اذنيه . قـال لي ذلـك بالأمس . أخبرني أنه ينوي السفر ، ينوي هجري ، وهجر ارضنا الطيبة . عطاء الارض لم يعد يكفيه .

ثم حوّل نظراته اليّ :

ـ أنظري الى ذرّات التراب تري في كل ذرة شعاعاً من نور عينيّ ، وقطرة من دماء قلبي ، وعُمراً من أحلام شبابي .

كنت ، طوال عمري ، أعيش من أجله ، وأحلم به ... فاراه يسير هنا في هـذه المسافات الشاسعة ، يسير كالطود ، كالملك في مهرجان عيده .

مـذ أطلّ راجي عـلى حياتي وأنا أرى الطود يشمخ ، ويتعالى ، وأرى الملك الصغير ينمو ، ويقترب

من عرشه ، ليتسلّم المفاتيح . وإذا بـه يتحوَّل ، فجأة ، الى نسر قوي ، يستخدم قوّته للتحليق في الآفاق البعيدة .

سوف يهجـر راجي أرضنا الطيبة مـع من هجروا ، وأبقى ، أنا ، أسامرها ، أهدهد جراحها ، حتى تغيّبني في أحد تجاويفها .

أنا لا أخاف المـوت يا بنيَّتي ولا الحفـرة الصغيرة المظلمة . لا أخاف ملاصقة التراب . سوف يسعدني الموت ، إن هـو أقبل ليحوِّل جسدي الى ذرّات تغني تربة حقلي . ولكنّ الذي يحزنني أن لا يكون راجي ممن يسعد بجني الخيرات .

مسحتُ دمعة اغتصبت سبيلها الى عيني . وعبثاً حاولت أن أجد كلمة أقولها له .

وكانت مِرسال تحدّق الى وجه الشيخ ذاهلةً ، وقد راحت في شبه غيبوبة . ثم رأيتها تتحفّز للاقتراب منه أكثر ... ربما للسجود بقربه على الارض . فربتُ كتفها وأنا أتصنع الابتسام ، وعدنا نخبط في الطرق المتعرّجة .

« شكراً يا منى . شكراً . لقد انقذتني من تلك اللحظة . »

قالت مِرسال ذلك بصوت يشبه الهمس ، وتابعت :

ـ كدت أقدم على عمل جنوني . لا أدري ماذا أصابني ، فقد نسيت نفسي ، وبتّ أشعر أني وتلك الأرض جسم واحد . تُقْتُ الى الانحناء على يديه ، والسجود أمامه ، أمرّغ شفتيّ بتلك العروق المنهكة في يديه ، أؤكد له حبي ، أبتهل إليه ، الى الارض والسماء ، ليحوّلوا راجي عن طموحه .

طموح ؟

يا لهذه الكلمة الزائفة !

انها خيانة .

الخائن ! لماذا خدعني ؟ أجل ، كدت أفضح مشاعري أمام أبيه . ولكنّه لا يستحق . لا ...

وتحوّل انفعالها الى قهقهات مجنونة . ثم ضغطت يدي ، وقد تجمّعت قواها في أطراف أناملها ، وجمدت

في مؤقيها دمعتان.

كدنا ننسى كلّ شيء ونحن نرشف القهوة المطيّبة بنكهة الهال، ونجلس على الديوان المريح في بيتنا. ولم تسألنا أمي عن سبب تأخرنا في العودة الى البيت بعد القداس. كانت تخشى لسان زائرتها.

أم سليم صاحبة لسان دافىء، ولكنْ عندها شابٌ برسم الزواج. وهكذا، كان عليّ أن أكون مهذبة مع هذه المرأة ومثيلاتها.

وكنت أصطنع التهذيب ما أمكنني إرضاءً لنزعة الكبرياء في صدر أمي.

وبقيت أم سليم تلاحقنا بنظراتها الفاحصة كأنها تقوم بمقارنة بيني وبين مِرسال، لتخرج منها بنتيجة حتميّة.

من تكون عروس سليم؟

وكنا، نحن، نعرف ذلك، ونخفي موجات من الابتسام الخبيث، ونحن نردّ على دفق اسئلتها:

ـ تعلّمت منى الطبخ يا أم سمير؟ مـين بيطبخ

أحسن ، أنتِ يّما مِرسال؟ رتي الكلسات ضروري لكلّ بنت ... والخياطة ...

ويا أم سمير ، ليش ما بتعلمي منى العجين والخبز ؟

وبقيت أمي تجيب عن كل سؤال من أسئلتها باحترام ، معترمة لها بهذا الاهتمام الجدير بالتقدير .

وكنت أعلم أن أمي لا تطمح كثيراً الى التقرب من أم سليم ، إنما كانت تُبقيها في حسابها إذ لم يكن هناك أفضل منها .

بقينا بعضاً من ساعة نشارك في الحديث ، ونصغي بشغف الى حديث أم سليم عن المرشّحين للزواج في هذا الفصل . وكانت لا تدّخر جهداً في مدح صفات سليم من حين إلى آخر ومعاملته الطيّبة لها . وأخيراً جمعت خلاصة أفكارها في عبارة الوداع :

« ابقوا شرفونا يا أم سمير ، وخذوا منى معكم . »

ودّعتُ مِرسال عند الباب ، وعدتُ الى المنزل ، تلاحقني أصداء حديثها ، وقد انطبعت صورة انفعالاتها في خاطري ، وراحت تعكّر صفاء أفكاري .

لماذا تمتد الأفكار والأحاسيس عبر واقعها ، فلا تنتهي في مكان حدوثها وزمانه ؟

لماذا يحمل الانسان هذا الكابوس على ظهره ، ويروح يقطع السبل الوعرة ، يسبح في عرق الإرهاق ، في بخار الكلل ، ويمشي ؟

لماذا ؟

ألصقتُ وجهي باللوح الزجاجي . عانقت النافذة

في غرفتي . وبقيت أحدق إلى البساتين البعيدة ، والكروم المترامية عبر آفاق القرية .

كانت الشمس تسطع مرحة ، تلوّن المروج ، وتمسح رؤوس الأشجار ، فتزداد نضارة غابات الصنوبر ، وتزهو الأوراق الصفراء المتشرنة في كروم التين والعنب . وكنت ألمح يد راجي تمتد صوب الكروم ، وتهوي على تلك الاشجار بفاس حادّة ، تقطع رؤوسها ، تخنق فيها جذوة الحياة ، وتتوارى بعيداً ... ثم تعود الى المباني التي يقطنها الناس في القرية ، فتحمل معولاً وتروح تهدم .

لاحت مني التفاتة الى الخرب المجاورة لبيتنا .

خرب ! هذا ما تبقّى من منازلهم .

وظلّ الاسم في ذهني حجراً أصمّ ، يقف عند منعطف حياتي ...

خرب !

ثم عدت أرى راجي ... طموحَ راجي يقهقه فوق تلك الخرب ، يدوس حجارتها المنهارة ، ينقضّ على القناطر الساذجة .

أكانت تلـك الخـرب ، يوماً ، تؤوي أزواجاً وأطفالاً ؟

كم ولادة شهدت ؟ كم حكاية حبّ غزلت في الليالي الراضية ؟

وها هي ، أخيراً ، تنهار ، وتصبح ماوى للبوم والخفّاش .

الخرب هي الصوت المنـدحر ، المهـزوم ، في قريتنا .

إنها الانسان المغلوب على أمره في صراع العيش ، ضمن ذلك الإطار الضيق ، بـين ذرّات التراب المحترق ، يدفعـه الضيق ليشقّ سبله الى العلاء ، فيخبط بجناحيه ، ويرتفع بحثاً عن الأنفاس الطليقة ، والنشوة المظفّرة .

ترى ، هل عرف راجي تلك النشوة ؟

كان يسير على خطاهم ، متابعاً سرد الأسطورة العتيقة في القرية .

انتزعني من تاملاتي صوتُ أبي فوق السقيفة :

« تفضّلوا يا شباب ، تفضّلوا اشربوا فنجان قهوة . »

وكان راجي أحد هؤلاء الشباب .

عشرات منهم يروحون ويجيؤون ، كل يوم ، على الدروب الفارغة ، بين المساكن الحجرية الضيّقة . وتنتهي الرحلة عند حدود القرية .

ويعيدون الكرة كل يوم ، كل ساعة . إن الساعات تتزحلق قائمة ، حائرة . وحبال مختلفة الأحجام والألوان تشدّ سيقانهم وأناملهم وشعر رؤوسهم ... تسمّرها الى الممرّات الصغيرة والأزقة الضيّقة .

وراجي تجرأ على قطع الحبال وممارسة التحليق .

أطلّ بقامته الفارعة ، وقد سبقته عيناه . نور غريب ينبعث من وجهه ، هو النور الذي أضاء السبيل أمام مِرسال . هكذا فكرت .

كان يرتدي بذلة جديدة تلفّ قامته بأناقة غريبة عن جوّ القرية ، وقد ثارت خصلة من شعره الفاحم الكثّ على الجبين العريض ، تسطّر تحدّياً لاواعياً .

حيّاني ببسمة مشرقة ، سلّطت على وجهه ضوءاً ساحراً ، فبدا كلوحة فنيّة جادت بصنعها يد فنان

قدير ، وجعلت الانسجام عنصرها الأساسي . وقفزت في خاطري كلمة مِرسال : « الخائن ! »

لا ، لم تكن في نظرات راجي واحاديثه إمارات الخيانة . كنت أراه ، في ذلك الصباح ، بعين مِرسال المحبّة .

جلس الشباب يدّخنون ، ويصغون الى مغامرات أبي في الصيد . في هذا الوقت من كل عام ، وقت الغرس ، تكثر طيور السمّن في الحقول المجاورة ، بدل طيور أيلول .

إنها طيور صغيرة الحجم ، دكناء اللون ، تهرب مذعورة من الصقيع لتحتمي بأشجار الزيتون ، وتلتقط ما بقي من الحبّات الدسمة ، أو تلاحق الفلاحين بين حقول القمح ، وتقتات بما يطيش على سطح الارض من حبوب .

كان هاني ، شقيق نجلا ، أشد الجميع حماسة . وظلّ طوال الوقت يتحدث عن بندقيته الجديدة ، او العروس كما يسمون البندقية في مثل هذه الجلسات .

وظلَّ راجي صامتاً . وكأني لمحت ارتعاشاً يسيطر علـى شفتيه ، وحول فمه . وبدا في عينيه بعض شرود .

وأنقذه من التيه سؤالُ ابي :

– شو ؟ دبّرت الناولون يا راجي ؟ رَح نستفقدلك كتير يا ابني ، الله يوفّقك .

وقال هاني :

– ابقَ اذكرنا في ملكوتك يا راجي ... مـا تنسانا .

وكان سليم يستمع لتطوّر الاحـاديث بصمت . ولمحته يتاهب ليقول شيئاً ، ثم عدل ، وعاد يغرق في عزلته الدائمة .

لا أذكر اني سمعت سليماً يعبّر مرّة واحدة عن رأيه . وحتى الآن لا أكاد أعرفـه ، إلا مـن خلال أحاديث العجوز أم سليم .

وعاد هاني يشغل اللحظات التائهة : « والله يا شيخ حرام تترك أبوك . دخلك يا راجي ، مش عاجبتك هالرزقة الواسعة ؟ »

لا ، الأرزاق الواسعة لم تعد تعجب راجي ، لم تعد تكفي جيل راجي ، الجيل الذي أطلّ من نافذة القرية على حياة المدينة ، على ترف العصر ، وعاد يتراجع الى واقعه . فإذا الأرض تشرق بخيراتها ، وتختنق في نار جدبها ، واذا ضروع الكرمة تجفّ ، وإن هي أعطت ، فالعطاء الشحيح لا يشفي الغصص المحشرجة في صدور يدقها الطموح في كل لحظة .

وعدت أسمع راجي يدافع عن نفسه ، عن جيله :

– أجل ، لم تعد الأرض تكفيني ، أحببت أبي ، وأرضي . يا ليتني أقوى على سلك الدرب الذي أعده لي أبي .

ماذا نفعل نحن هنا ؟

الأرض ؟ هذه الأرض نقطة منسيّة في دنيا الوجود . من يعرف شيئاً عنّا ، عن ارضنا ؟ من ذاق طعم الملح في العرق المتصبّب من وجوهنا ؟

من يحترق ، كلّ يوم ، عشرات المرّات ، تحت لسع السياط اللاهبة ؟

من يموت ، في الصقيع ، ألف ميتة ، ويدفن

أطراف أنامله في الثلوج لتدفأ، أو يضربها بعصا السنديان، ويشقّقها بالسكين، لتعود الدماء تسري في شرايينها؟

تجلسون هنا، تسمرون لحظة قصيرة، تعدّها لكم الحياة، لترتاحوا وتستعيدوا أنفاسكم، ثم تعودون الى الأرض، وتمزجون دماءكم بشرايينها، وتدقّون أبوابها بالواح صدوركم، وفي النهاية، تخرجون وفي قبضتكم بقيّة رماد.

تدقّون صدر الأرض، كل يوم، وتموتون على وجهها ألف مرة قبل ان تفتح أبوابها لتُعيدكم إليها.

ومن يهتم؟ من يعيركم التفاتة؟

الدولة التي تجمع الضرائب عن بيادركم، في كل عام، ماذا فعلت لتزيد غلّات أرضكم؟

ماذا فعلت لكم؟

هل سكبت قطرة ماء في حلوقكم اليابسة؟ هل فكّرت في إطفاء النار الملتهبة بين ذرات التراب؟

انتم تحملون غلّاتكم، على ظهوركم، في نهاية الموسم، وتقفون على السطوح، تنادون عليها. وتبحّ

حناجركم ، وتختنق أصواتكم ، وتتعفّن الغلات وتسوّس بين أيديكم .

بالأمس مات ابو منصور ... أتعلمون كيف مات؟ في الثمانين من عمره ، كان يحمل معوله ، كلّ يوم ، ويغدو الى الحقل . وبينما كان يرفع المعول ليقلع بعض الصخور ، وقع المعول من يده وانهار جسده فوقه ، و ... مات .

كان أبو منصور وحده في الكرم ، ولم يعرف أحد بوفاته حتى صباح اليوم التالي . اكتشفه معّاز كان يمر من هناك مصادفة .

لا ، لن أعيش كما عاش ابي ، ولن أموت مثل أبو منصور .

لم يبدُ الدفاع قوياً كما أراده راجي . فقد كان غده غامضاً ولا يعرف لون الحياة التي يخبئها له المستقبل وراء الآفاق البعيدة .

كان يستمدّ كلامه من واقعه الحائر المشتّت ، واقع خلّفهُ ضيقٌ خانق بين دفتيّ كتاب محدود ،

وكلمات فاه بها معلم غريب ، ووجه أنثى ، حاذقة ، تعرّف اليها في رحلاته القليلة الى المدينة .

كان حبّه لِمرسال شبيهاً بحبه للأرض : حباً فطرياً ساذجاً ، لا يصمد أمام عواصف الطموح ، ولا يغذّي نزعات كثيرة كانت تدقّ حواسه وافكاره في كل لحظة من لحظات حياته .

كان حبه لِمرسال النوع العادي من الحب الذي عجز عن دفعه في الشعاب الوعرة ، يقلع شوكه بيديه ، ويتعثر في سبل غريبة ، أو يتسلق الجبال الرفيعة القمم .

تلك الافكار غرستها أمه في رأسه منذ أن فتح عينيه على الحياة .

كانت أم راجي امرأة متوسطة الجمال والذكاء ، وكانت تخاف كثيراً على مستقبل وحيدها في القرية : « الضيعة ما بتصلح لأمثال راجي ... ما بدي ابني يدفن حياته هون ، مثلي أنا . »

كانت تردد أقوالها بلسان ما زال يحتفظ بلهجته الغريبة ، فقد عرفت هي حياة المدينة في مطلع

حياتها .

هاجر والداها الى أميركا وعادا ببعض مال وضعه الوالد في دكان صغير يحتوي كل مـا تطلبه الحياة في القرية . وكبرت الفتاة ، وبقيت ذكريات الاغتراب تطوف في بالها . وقد زادتها حياة الحرمان ، في القرية ، بهاء ورونقاً .

وعاشت هذه الذكريات في كل لحظة من لحظات عمرها ، بل كانت الحاجز الذي أبعدها عن مشاركة زوجها في حياته وأفكاره .

ـ لا تاخذ راجي معك اليوم الى الحقل ، فقد تعب مبارح كفاية . اتركه يدرس شوية .

ثم تهمس في أذن الصغير : « الحياة في اميركا غير هون يا إبني . بدي ّياك تسافر حتى تبعد عن قساوة العيش . »

وكان الذي يتأمّل في عينيّ أم راجي يلحظ خيبة مريرة تجول في ماء العينين ، وبقايا طموح مندحر يجثم بين غضون الوجه .

ولم ُيعرف عن أم راجي أنها كانت تخضع لزوجها

ذلك الخضوع الطبيعي عند نساء القرية .

كانت تقلّل من قدره على مسمع الأغراب ، وتخالفه في أمور كثيرة ، ولا تتورّع عن تأنيبه اذا اقتضى الامر .

وكانت حنّة تذكر هذه الامور في جلساتها المألوفة ، وتشفع كلامها بعبارات الشفقة على أبو راجي ، الرجل الذي يحب الجميع ، ولا يؤذي النملة إن وطئها بقدمه : « ياما في ناس مظلومين بهالكون ! وبو راجي واحد منهم ... »

هذه واحدة من العبارات التي لا أزال اذكرها عن حنّة . وحين خُتمت حياة أم راجي إثر نوبة في القلب ، قالت حنّة بشيء من الراحة : « يا لله ! ارتاح بو راجي . »

نهكني التعب، وكدّني العناء، وأنا أبحث عنهم في كل لحظات يومي...

بالأمس، سرت بين الناس، في شوارع المدينة، وقد مات في قدميّ التحفّز والنشاط.

كان الناس يحدّقون الى نظراتي المكدودة، والى تساؤل متهالك فوق شفتيّ، كأنهم يتساءلون عن سرّ تيهي في هذا المحيط الهائج.

وظـلّ الناس يركضون في الشوارع الضيّقة، يقيسون أجسادهم الصغيرة بالمباني العملاقة، والمطر يرشق الأرض بغضب وعنف.

بدت المدينة كالحوت الجائع ، يفتح فمه ويُغلقه . وبين الفتح والإغلاق ، يدخل الناس ويخرجون ، وقد علت وجوههم إمارات الذعر .

وظلّت الوجوه المتقلّصة تتسابق في مرآة نفسي ، تهيم باحثة عن جواب لتساؤلها .

وكنت ألمح ، من حين الى آخر ، أشلاء من بقاياهم ، وقد غارت تحت قناع كثيف .

وصفعتني عبارة مفاجئة : « راحوا ، لن تجديهم بعد اليوم . »

كان وجودهم رهن بتلك اللحظات التي انطفأت في مواقد النار ، في الغرف المظلمة ، في بيوت القرية .

ويبقى القلم يسير . أسمع صريره ، الآن ، وهو يسجّل ذكرياتهم ، والصور الحلوة الهاربة بين المنحدرين هناك ، عند فتحة الوادي .

وأذكر ، والوحدة تنهش قلبي ، العهدَ الذي قطعته على نفسي لهذا القلم ، يوم لوّحتُ بالمنديل لقريتنا الحبيبة ، وانحنيت اقبل تربتها مودعةً .

كانت العاصفة مزمجرة تلك الليلة . واحتضننا الموقد الدافىء كأننا جماعة من اللاجئين هربت تحتمي من حرب مدمرة .

إن للطبيعة سلطانها البدائي هناك .

الناس يضحكون مع الشمس ، ويرتعدون مع الرعد ، وتذوب أجسادهم في عواصف الغبار ، ويمسحون قلوبهم بنقاوة الثلوج .

كان أبي ينتظر ضيوفه في تلك الليلة ، وقد نفد صبره ، فللزيارات نكهة خاصة في الليالي العاصفة . إن عنف الطبيعة يفرك نفوس الناس ويجمعها ، فتلتحم كأنها تنشد الأمن مجتمعة ، لتجبه العناصر الخارجيّة الطارئة .

شرّعت الباب ، وخرجت الى العاصفة ، أتلقى قبلات الثلوج وهي تتهالك بصمت على الاشجار والسطوح وفي الأزقة .

بدت الأرض ، في تلك اللحظة ، صفحة من ضياء ، تنعكس على الضباب المتمرّد في قرص الفضاء .

كنت أدعو الصقيع لينفذ الى مسامّ جسدي ، الى الزوايا الدافئة من صدري ... أدعوه ليسطرني رقعة من رقاعه البيضاء الساذجة . وارتفع صوت أبي محتجاً ، فقد نفذت العاصفة الى الحجرة تطرد دفئاً حصرناه طوال النهار :

ـ في مَن تفكرين يا منى ؟

أراك ساهمة ، شاردة ، فلماذا ؟ أفي بالك أحدٌ ؟

تبسمتُ لأمسح الشكّ من ذهن أبي ، وأحكمت إغلاق الباب ، ثم جلست أقلب صفحات كتاب .

وعاد صوت أبي :

ـ ماذا تقرئين ؟ أتكشفين بختك ؟ أتبحثين عن الغد بين ثنايا الكتاب ؟

أجل ، يا أبي ! كنت أبحث عن الغد .

بحثت عنه ، دائماً ، بقلق وحيرة . وكان ذلك دافعي لأخرج الى العاصفة ، علّها ترفعني في ذروة عنفها ، وتحلّق بي الى البعيد .

قالت جدتي ، وأنا اسرد لهـا أحد احلامي الغريبة :

ـ لا تخافي ، يا بنتي ... مش كل الأحـلام بتتحقق ...

واقتربتُ منها ذات صبيحة ، أروي لها حلماً غريباً : كنت واقفة قرب نهر ، أتأمّل مياهه الدافئة ، والمروجِ المنبسطة على ضفتيه ، وأعيش لحظات نشوة لا يعرفُها الواقع . وفجأة نبت لي جناحان ، فرحت أطير وأعلو ، والنشوة العارمة ترتفع في صدري. ثم اذا بي أهوي الى عالم اليقظة .

فتحت عينيّ وقد زال الحلم ، وبقيت آثاره في خفقات قلبي .

ربّتت جدتي كتفي بيدها الدافئة :

ـ الاحلام ما بتعني شي ... لا تخافي يا بنتي .

تكرّر الحلم في الواقع ، وأنا اقف فوق المصطبة ، مثبتة قدميّ في الصفحـة البيضاء كعبارة خطّها القدر في ذلك المكان البعيد .

كان السؤال مفاجأة لأبي قبلي. لاحظت ذلك في صمته، واجتنابه التحديق الى وجهي وأنا مكوّمة كالفاصلة، أحول بينه وبين أفكاري.

اقتربت من الموقد، وطردت قطتنا السوداء، لأحتل مكانها في الزاوية الدافئة. وقفزت القطة تؤدي دورها في المسرحية، وتتلوّى بغنج في حضني، وتبثّ فيه أنفاساً مستكينة ناعمة.

كانت تلك اللحظة الوحيدة التي جمعتني بأبي. ثم ابتعد كثيراً. عاد الى نظرياته وقوانينه وفلسفته في «المجتمع والتربية وعلاقة الفتاة بالشاب»، ودور كلّ منهما في الحياة.

وددت لو أستغل تلك اللحظة لأطرح عليه أسئلة كثيرة: أتخشى هذا «الاحدهم» يا أبي؟

من أكون في نظرك؟ من أنا؟ امرأة، عالة، مصيبة، لعنة الضعف؟

كنت أعرف انك تحبني كثيراً كثيراً... ثم ماذا؟

أسئلة، وأسئلة، كانت تقضّ مضجعي، وأتمنى

لو أخرجها، فيمنعني خجل الطفولة، وأتوارى وراء قناع وهمي، وأبقى أعيش في القلق، في دوّامة من الحيرة والهروب.

لم يسمح لي الضيوف بسؤال واحد من هذه الاسئلة كلها.

سمعت وطء أقدامهم في فناء الدار، ثم على عتبة الباب. كانت تسبقهم نغمات متقطعة وآهات تأفّف من العاصفة. وتلا ذلك كلّه استكانة في ظل الاحاديث المتنافرة، والفكاهات الخشنة.

وكانت امي قد استعدّت لهذه الزيارة طوال النهار، فأعدّت الحلوى اللذيذة، والفاكهة المجففة، والقهوة المطيّبة: الوسائل الوحيدة المسلّية في سهرات القرية.

كانت تلك اول زيارة يقوم بها « سايمون » وعروسه لعائلتنا.

قبل أن يغادر القرية ، كان اسمه سمعان . لقد عرفته الحقول ، والكروم ، وأعالي التلال ... وصورته هذه يذكرها الذين شاطروه الحياة في تلك اللحظات الزمنية .

كان في السابعة عشرة من العمر ، مفتول العضلات ، بهيّ الطلعة ، يجيد غناء « الميجانا » والنفخ في الشبابة .

وكانت أصداء شبّابته ترجّعها منعطفات الوادي ، وهو متربّع فوق صخرة أزليّة ، يرعى القطيع ، ويحلم بالغد .

وكان سمعان يخدم القدّاس أيام الآحاد ، ويحيا

بساطة العيش، ولا يحلم أنه قد يسافر، ويصبح من أثرياء المهجر.

أما «سايمون» الذي زارنا، تلك الليلة، فلم يكن يحتفظ بصفة من الصفات التي علقت بذاكرتي منه. كان يطل على العقد الخامس من العمر، وقد تهدّلت عضلات وجهه، وغارت عيناه في تجاويف عشش فيها الهمّ والعناء، وبدت السمنة واضحة في أصابع يديه وكرشه المرفّه وحركاته البطيئة الناعسة... لم ترحم السنون شعره، فمسحته بنقاب باهت، ومحت جزءاً من معالمه.

«سايمون» كان ذائع الصيت في عالم المال، وقد سبقته الرواية، عبر المحيط، الى الدار الصغيرة التي احتضنته حدثاً نكرة.

حين سافر سمعان خلّف وراءه أباً وأماً كانا قد قطعا مرحلة من العمر. ثم داهم الموت الوالد. وبقيت الأرملة تعيش على بقايا حلم، تشدّها اليه رسائل مقتضبة من هنالك، تتلقاها الأم بالعاطفة والدموع.

لطالما استدعتني أم سمعان لأكتب لها رسالة :

« أمك ستموت قريباً يا بنيّ . فرّح قلبها ، وتعال .

« يا حبيبي ، فتيات القرية بانتظار قدومك . اخترتُ لك عروساً تعجبك .

« يا بني ، أشم رائحتك في الرسالة ، أخفيها في طيّات ثوبي ، بين ثديي ، فوق قلبي .

« يا حبيب أمك ، يا سمعان ، طالت الغيبة ، والغربة قاسية ... »

اقتنع سمعان اخيراً ، وبعث ببرقية ينبىء فيها أمه بموعد قدومه .

استعد الشباب للقائه . وخرجت القرية بالعجّز والأطفال لتستقبل ابنها بعد طول الغياب .

وكانت أم سمعان تتوكّا على عكّازها وتقف بين الجماهير ، وقد ردّت الفرحة اليها رونق شبابها ، فبدت أشد قوة وحيوية .

وحين أطلّت السيارة الفخمة ، فقدت المرأة اتّزانها . راحت ترقص وتزغرد وتبكي وتضحك .

ونسيت العكاز في ثورة حماستها ، فانطلقت مفتوحة الذراعين ، منبوشة الشعر ، تستقبل وحيدها .

ولما احتوته ذراعاها ، مات النور في عينيها ، وعلت وجهها إمارات خيبة مزلزلة .

لم يلحظ أحد التحوّل الذي طرأ على الأم وهي تحدّق الى الكهل البدين أمامها ، محاولة أن تقنع نفسها بأنه ابنها ، بأنه سمعان ، إبن السبع عشرة سنة ، الذي ضمّها بعنف بين ساعديه القويتين ، وهو يطبع على وجنتيها قبلة الوداع .

قالت حنّة في صباح اليوم التالي : « سمعان ناوي يتزوج . مدري مين ؟ »

وبعد يوم ، مرّت بنا حنّة ، وقد نفختها البشرى : « سمعان رَح يخطب ليلى بنت بو فرهود . »

لم تدم الخطبة أكثر من أيام ، ريثما يتمّ إعداد الجهاز .

« ليلى محظوظة . اجاها السعد على طبق من ذهب ! »

هذا ما رددته « سعدى » وهي تتربع فوق المصطبة ، وتحاول أن تجد الحظ لبنتيها القبيحتين .

و « نجلا » قالت وهي تمر بيدها على خصلات شعرها الكستنائي : « ودخلك ، شو الدنيا بالمال ؟ »

وأضافت « انجلينا » : « يا بنتي ، عجوز يدلّل ، ولا شاب يهين . »

وشباب القرية ، الشباب التائهون بين الازقة الضيقة في القرية ، كانوا يتحدثون طوال الاسبوع عن الحدث الجديد :

« الدولارات ، يا خيي ، وحدها بتحلي بهالأيام . بياخدوا أحلى بنات الضيعة . »

« والله الحق مع راجي ، ما في غير الهجرة . »

وتلاشت أصداء الغيرة واللوم والخبث في العرس الرائع الذي أعده « سايمون » لعروسه .

لا أذكر كيف كانت ليلى قبل تلك اللحظات . وتعيش في بالي صورتها وهي واقفة في حلقة من صبايا القرية ، تسمع الزغاريد منطلقة من الحناجر ،

وتحني رأسها ، أو ترفعه وفقاً لطلبات الماشطة .

واقتربت حنّة تثبت وجودها في المناسبة ، كما تفعل دائماً : « لبّسوها الحلق والعقد والأساور كلها . حطّي عقدين سوا . أنت عروس يا حبيبتي . »

واحتجّت نجلا بقولها :

ـ وَيْن ذوقك يا سِتّ حنة ؟ الأفضل أن تبدل كل عقد مع تبديل ثيابها . يا الله ! الناس ناطرين العروس عالصمدة .

وكنت اراقب الأنامل تتحرّك برشاقة ، تزيّن العروس ، كأنها أصابـع فولاذيـة تتحرك في آلة عجيبة . كانت كل واحدة من النسوة تحاول أن تثبت براعتها في التجميل ، وتُجري تجاربها في وجـه ليلى وقدّها :

« الكحل قليل . الحمرة ما بتروح مع الفستان . »

« خليّ شعرها عالكتاف . »

« وين العطر ؟ رشّي ، يا حنّة ، ريحة طيبة ! »

بدا العرس كأنه يخصّ كل واحدة من الحاضرات ، ما عدا العروس .

كانت ليلى في عالم غريب بعيد. رأيتها تائهة، عاجزة عن التفكير، وسط ذلك التيّار السريع الذي شدّها إلى نقطة واحدة.

ونقلت نظراتها المتوسّلة إليّ، فشعرت بأنها تعي واقعها، وتعلم أنها ضحّت، وضحّت بالكثير، لإنقاذ عائلتها من الفقر.

كلماتها انغرزت في قلبي، فعصرت نفسي عصراً: «شو رأيك، يا منى، بالعريسْ؟ بتفكري رَحْ كُون سعيدة؟»

وبحثتُ حولي عن شيء أتمسك بـه، أشدّ اليه جسمي وأنا أجيبها: «إذا شئت ذلك...»

ثم هربت مني، وهي تمسح دمعة اغتصبت سبيلها الى عينيها، وكادت تفسد القناع الملوّن الذي رسمته الصبايا فوق وجهها.

لماذا فعلتِ ذلك يا ليلى؟ ولمن؟

دخلتُ غرفة «الصمدة» حيث ارتفعت العروس فوق الحشايا والطراريح، وقد بدت كالحمامة في ثوب

الزفاف ، والنقاب الأبيض منسدل على وجهها وكتفيها .

وتذكّرتُ أسطورة قديمة عن التنّين الجائع وابنة الملك ، الصبيَّة الحلوة .

وقعت القرعة على الأميرة الجميلة لتقف على الشاطىء ، تنتظر مرور التنّين الذي يلتهم أجمل فتيات المدينة كل سنة .

وبقيت الصبيَّة تنتظر ، وقد عقدت يديها فوق صدرها ، وارتسمت على وجهها مسحة استسلام هادىء ، وتهدّلت رموش عينيها في ذلّة الانكسار .

وبقيت مستسلمة ، والتنين يزحف نحوها ، ويزحف ... وتلفتُّ حولي أبحث عن بطل ينقض على التنّين ، وينتزع الصبيّة الحلوة من بين فكّيه ، ويغرز حربته الحادّة في حلقه ... ولكن هذا البطل ، الذي تُعلّق صورته في صدر الكنيسة ، لم يدخل الغرفة ، وترك ليلى تنتظر التنين .

وكأن ليلى شعرت بصرير أفكاري ، فانهمرت دموعها ، وبكت ، وتلاقت نظراتنا . فهربت منها

الى ركن قصيّ كانت تجلس فيه مِرسال ، تحاول أن تشارك في التصفيق والزغاريد .

كانت مِرسال تبحث عن مخدّر ينسيها الواقع ، ويدمل الغصّة القاسية في صدرها . وفي تلك اللحظة ، سمعت الزغاريد تنطلق من حنجرتها كأنها استغاثة غريق يشرف على الهلاك بين أمواج المحيطات النائية . وبقي صوتها يتردد بين الجدران الصامتة ، بين حنايا صدري ، ونحن نقف معاً ، نودّع ليلى ونتاملها وهي ترفع يدها الراجفة لتتأبط ذراع عريسها .

في صباح اليوم التالي ، عادت القرية تحيا حياتها الطبيعية الهادئة . وتفرّق الناس كلٌّ ينشد عمله .

وأمام غرفة نوم ضيّقة ، حيث كانت ليلى تقضي الليلة الاولى مع عريسها ، وقفت أمها وقد رفعت بين يديها « القميص » الملوّث بالدماء ، ورسمت فوق شفتيها ابتسامة الفخر : « تعالي يا أم سمعان ... تعالي قبّلي كنتك ... »

لماذا تركت مِرسال أوراقها بين يديّ؟ لماذا؟

لقد خلعتها من وجودها كما تخلع أشجار الحور أوراقها الصفراء لتنتهي مرحلة حاسمة مـن مراحل الزمن.

والزمن يمشي، ويتابع سيره، وأرى آثار أقدامه فوق هذه الصفحات الصفراء المتأكلة.

كان عليّ أن احتفظ بأوراقكِ يا مِرسال، أغلّفها بزجاج يحفظها كما تُحفظ نماذج الحيوانات في المختبر.

ولكنّي أمقت رائحة المختبرات. أمقتهـا... وأنت، لم تشائي ذلك.

وها أنا أذرّيها بين أناملي. أمرّغ بصري بصفحاتها. أخلد إليها في ساعات أسلخها من وحدتي، واتمنى لو أخلعها من درجي، أو أرمي بها في أشداق اللهيب.

ولكن، أيقوى الانسان على اقتلاع شرايين الذاكرة؟

ويعود صوتك ينساب في مسمعي:

«اعصفي يا ريح الجنوب،
احمليني الى حيث يقيم حبيبي.
ويا طيور أيلول، الى أين تحملك الاجنحة؟
هل صادفتِ حبي في رحلتك؟
وأنت أيتها الأشرعة المسافرة،
ارفعيني فوق صواريك الى بلاد نائية!»

عواطفك، يا مِرسال، أحلامك أثمن ما في وجودك، تترنّح منهوكة بين أناملي في هذه اللحظات.

ترى، كيف حقّقتِ حلمكِ، يا مِرسال؟

لقد حملتك سفينة مهاجرة، وغارت صورتك

في محيطات شاسعة .
ولكن هل وصلت اليه ؟

وكتبت مِرسال ايضاً :
« أراه ...
أرى حبيبي كإله ،
يسير في أرض ملكه ،
أراه فوق ذرى حرمون ،
في أنفاس الربيع وهي تمرّ على ازهار اللوز والتفاح،
في امتداد الاخضر فوق السهول ،
في زهور الأقحوان .
حبي في كل ذرات وجودي .
واسمعك ، يا حبيبي ،
في زغردات الطيور ،
في همس السنونو ،
في تبسّمات الشمس فوق ارضنا ،
في هدير المياه بين منحدرات الوادي ،
في كل وجودي ... »

أوراقك الصفراء تنهار بين أناملي لاهثة ، صريعة الزمن ، ملهوفة اليك يا مِرسال .

إنها تبحث عنك كما بحثتِ أنت عنه فوق الذرى وفي السهول .

ودرب العين ، يا مِرسال ، أتراها ما تزال تحنّ إلينا ؟ أما تزال متعبة من دوس الاقدام ، تبتلع أنفاسها وهي تصغي الى وشوشات المساء ؟

قالت مِرسال ، في تلك العشيّة ، ونحن نحمل الجرار ، ونتّجه صوب عين الماء :

ـ حدّد راجي موعد سفره ... غداً صباحاً سينزل الى بيروت لِيُنهي أوراقه .

وصَمَتَتْ .

امتد صمتها على طول الطريق المزدحم بالناس والحيوانات . وشُغلتُ عنها بتأمل الوجوه ، وإلقاء التحية ، من حين الى آخر ، على الأشخاص المسنّين .

وقفنا ننتظر دورنا في تعبئة الجرار ، ونصغي الى

« سنفونية » المساء ، حول ينبوع الحياة ذاك .

امرأة تهمس في أذن صديقة آخـرَ فضيحة سمعتها .

وأخرى تستعجل تعبئة الجرة لتلحـق الطبخة قبل ان تحترق ، أو لتعود الى طفل تركته في السرير .

وحول الجرن الكبير ، اصطفّتْ أبقار القرية وحميرها تتزوّد ، هي أيضاً ، بالقطرات المحيية ، يهيج ظمأها صفيرُ الرعاة والفلاحين ، ويصدّها عن الشرب نَفْحُ الرياح الشمالية .

ظلّت عينا مِرسال تجولان في صمت تائه ، حتى ارتفعت الجرّة فوق كتفها . وساعدتني امرأة في رفع جرّتي الثقيلة . وعدنا نجرر أقدامنا تحت ثقل الحمل ، ونجترّ أفكاراً لا يسمح لنا التعب بأن نبوح بها ... وظلمة المساء تتغلغل بين المساكن والأزقّـة ، فتزيدها وحشة وضيقاً .

تركتني مِرسال عند مفرق الطريق المؤدي الى بيتها ، وقد أخذت مني وعداً بأن أعود الى قضاء

السهرة عندها .

كنت أفضّل ان أبقى في فراشي ، تلك الليلة الباردة ، أو أقبع بجانب الموقد ، أتأمّل ألسنة اللهيب الزرقاء ، الحمراء ، تتراقص على أنقاض قرامي السنديان .

ولكن دعوة مِرسال أوقدت العزم في قدميّ ، ورأيتني أندفع بخفّة الى دارها .

استقبلتني أمها في الباب باسمةً ، وقادتني الى حيث نصب « الوجاق » الجديد . فقد كان بيت مِرسال حديثاً بالنسبة الى سائر المساكن . ولما وضع والدها التصميم الجديد للمنزل ، ألغى الموقد والمدخنة ، واستعاض عنهما بالأتون المقفل الذي يوزّع الدفء بهديره ، ويحفظ للجدران لونها الابيض ، فلا تصطبغ بالاسود اللماع الذي يكسو السقوف والجدران الخشبية في غرف الاشتاء .

بقي والد مِرسال منهمكاً يتصفّح جريدة قديمة . وانزوت أمها تحوك كنزة من الصوف . وجلستُ قرب مِرسال نتسلّى بلعب الورق ، ونمدّ أيدينا ،

بتردّد ، الى أطباق الضيافة ، وقد امتلأت بالقضامة ، والزبيب ، والتين المجفّف .

لم أسمع صوت أبو شفيق في تلك الليلة سوى مرتين : حين رحَّب بقدومي ، وحين سلّم عليّ مودّعاً .

كان رجلاً هادئاً يفكّر أكثر مما يتكلم . أما أم شفيق فكانت سيّدة يحسب لها حساب في مجتمع القرية . كان لها وجه مليح ، يكلّله تاج من الشعر الكستنائي ، وقد ارتاحت في صفحته البيضاء عينا مِرسال الخضراوان ... وكنت دائماً ألاحظ نقاباً من الهمّ الصامت يغلف الوجه الجميل ، همٌّ خلّفه في صدرها هجرُ بكرها ، « شفيق » ، قبل أن يبلغ مرحلة الشباب .

مضت عشر سنوات على غياب شفيق . هكذا شاءت عمّته في أميركا ! كانت أرملة ثريّة ، وليس لها أولاد ، فكتبت لهم تقول : « أنا مستعدّة لان أتحمل نفقات السفر كلّها . لا تقتلوا مستقبل الصبي . ابعثوه اليّ . هنا سوف يتعلّم . وحين يُنهي اختصاصه يعود

الى البلاد ... »

وبعد ذلـك ، بعث شفيق برسالـة أكد فيها لوالديه أنه عازم على البقاء : « علمي يخدمني هنا يا أبي . لا أدري ماذا أفعل حين أرجع الى القرية . ولكن ، سوف أزوركم ، يا أمي ، في مطلع كل صيف ، انشاء الله ... »

لم يبدُ التأفف يوماً على أم شفيق . بقيت محافظة على هدوء أعصابها ، ولم تتخلّ قط عن أناقتها . وظلّ الرونق الفتي في العينين يغلّفه ستار الحزن الناعم .

ومِرسال لم تكن تُخفي عن أمها سرًّا ، وظلت تتفق معها على إبقاء امورها الخاصة في معزل عن الأب ...

ولما ودّعتني أم شفيق في تلك الليلة ، عند باب بيتها ، ضغطت يدي بحرارة وهي تردد : « مِرسال اختك يا منى . لا تتركيها . إنها تقدر نصائحك ... »

نهضت القرية باكراً في ذلك الصباح، وزحفت بشيبها وأطفالها الى ساحة «الهجرة».

لا أحد يذكر متى استحقت الساحة هذه التسمية، ومن خلع عليها هذا اللقب الملائم.

منذ عشرات السنين والساحة تستقبل أفواج المودّعين، تفتح لهم صدرها بصمت، وتسمع التنهدات والآهات، وتشرب ماء العيون ...

تأخّر راجي قليلاً، وبقيت الأنظار معلّقة بمطلّ الساحة. كان عليه أن يمرّ لوداع المرضى والعاجزين، اولئك الذين أقعدهم الوهن عن المسير الى الساحة.

وحين أطلّ ، يمسك والده بساعده الأيمن ، ارتفعت اليه الابصار ، وسمعت شهقات كثيرة تختنق في صدور النساء .

« سلّم عليهن يا راجي ... »

« قل لأبو ديب يذكرنا . ما عاد كتب من زمان . »

« الله يكون معك يا ابني . كون قد حالك في الغربة . »

« الغربة للرجال . شدّ حيلك . ادعُ له يا ابو راجي . صلِّ حتى الله يوفّقو ... »

بقيت أدعيتهم تتصاعد في الهواء ، وراجي يتنقّل بين أكفّ المودعين ، ينحني فوق يد راجفة على عكاز ، ويرتمي بين السواعد الشغوفة ، ويرضخ صاغراً لقبلات النساء ، المسنّات منهن ، ويمدّ يده ، من حين الى آخر ، يمسح بقايا دمعة علقت بخده .

وجاء دور الصبايا ، فمرّ بهن مسرعاً ، وبقيت العيون الفتيّة تلاحقه ، متاوّهة ، وجلة ... والشباب ، كانوا يحدّقون الى وجهه بنظرات يشوبها بعض

غيرة .

لقد حقّق راجي أحلاماً يحيون فيها كل يوم. ولم ينسَ ان يودّع الأطفالَ الذين تجمّعوا فوق أكوام الحجارة ، يراقبون المسرحية في تهيّب صامت .

وأخيراً اقترب من أبيه ، وارتمى على صدره كالعصفور الهارب من العاصفة . وبقي وجه الوالد يرتعد فوق كتف الشاب ، ودموعه تحرق الأخاديد السمراء الخشنة ، وأنامله تتلمّس الشعر والعينين والكتفين : « آه يا ولدي ! ليتني متّ قبل هالساعة ... »

وصرخت حنّة من بعيد : « اتركه يا بو راجي . حرام عليك ! »

انسلخ راجي عن الصدر المرتعد ، وهرب الى العربة المنتظرة على جانب الطريق . وراحت الآلة النارية تلتهم الدرب البعيد . وظلّت يد راجي تلوّح بالمنديل الأبيض ، حتى غاب وراء التلال .

وبقي الأب مسمّراً الى الأرض ، وقد رزحت

قدماه تحت ثقل الهمّ ، وغارتا في التراب الرطب . وظلّت دمعات متحجّرة تجول في مؤقيه ، وقد سافرت عيناه ، تقطعان المسافات البعيدة ، وتحاولان اللحاق بالمهاجر .

لقد ترك أبو راجي وداع المرفإ لأصدقاء راجي الشباب ، ولكنه أقسم بأن ينزل الى المدينة يستقبله عندما يعود .

اقترب أبو الياس ، ووضع يده على كتف الرجل ، يحاول اقتلاعه من تلك اللحظات الموجعة ، ثم سار معه يتقدمان الموكب الذي بدأ يزحف بصمت في طريق العودة .

« هل صافحته يا منى ؟ هل لامست أناملك يده القوية ؟ هاتي يدك أقبّلها . دعيني أمرّغ عينيّ بعروقها ، وأمسح عنها آثاره بشفتيّ . يكاد الصمت يقتلني يا منى . وأنت وحدك ملجئي ... »

انتظرتُ مِرسال . وبقيت أعد اللحظات التي تحجبها وهي قابعة خلف غشاوة الألم تجلد نفسها

بسياطِ العذاب وتختنق . وفي العشية أطلّت تسترق سبيلها الى بيتنا وجلةً ، حائرةً ، كأنها تسير هناك للمرة الأولى في حياتها .

ـ أوحدك انت يا منى ؟

ـ ادخلي يا مِرسال .

وارتمت على الديوان ، خائرة القوى :

ـ كل ما بقي لي منه تلك النظرة الاخيرة ، مسح بها دارنا ، ونفذت ، خلـل الزجاج ، الى قلبي .

خشيت أن أنهار في الساحة أمام أعينهم . لم أنم طول الليل يا منى . كنت أسمع خطى بطيئة تزغرد في آذان الليل . خلته يطوف حول داري . ولم أجرؤ على ان أطلّ من النافذة لأتأكد أني لست في حلم . كنت خائفة أن ينهار حلمي حين لا أراه ... وبقيتْ الخطى تزحف في الليل ، فوق أعصابي ، فوق عينيّ ، وتمسح عنهما الكرى . وفي الصباح ، نفضت الغطاء ، وارتديت أجمل ثيابي ، ثم وقفت خلف النافذة المطلّة على الطريق .

كان يجب أن أراه يبتعد، يسحب قدميه من دربي. ولم أحتمل فكرة وداعه هناك، بين الجموع، حيث يصبح ملكاً للجميع.

ظلّتِ اللحظات تزحف ثقيلة فتدوسني بعجلات من فولاذ، تسحق أعصابي. وحين رأيته يلتصق بأبيه خارت بقايا قوّتي، وتشبّثتُ بحديد النافذة وعيناي تخترقان الزجاج.

لم يخب ظني يا منى. وكأنه شعر باني هناك، أقف خلفه، أنتظره، فأدار بصره في التفاتة سريعة، فيها توسّل وعاطفة وألم، ثم راح يباعد خطواته كأنه يهرب من الرصاص.

تكفيني منه تلك النظرة، فسوف تبقى تطحن عظامي، تعجنها، وتجدّد فيها العزيمة للبقاء.

وحين غيّبته الطريق، ارتميت على بلاط الغرفة، ورحتُ اضرب رأسي بالصلب الاصم، وأحاول أن أفتح فيه سبيلاً الى الاطمئنان. وبقيتُ على البلاط البارد، امرّغه بشفتيّ وأغسله بدموعي.

كانت تلك لحظات قاسية عنيفة. كانت قمّة في

الجنون والألم. ولن أعود الى تذوّقها عمري.

ألقمتُ النار خشبة جديدة، لعّل اللهيب يمسح عاصفة الصقيع التي خيَّمت حول الموقد، ويعيد الدفء الى مِرسال.

كانت أسنانها تصطكّ، وأناملها ترتجف، كأنها سعت الى البحث عن شيء تتعلّق به، ثم تردّدت فبقيت معلّقة، في الهواء، سؤالاً حائراً على شفاه المجهول.

الأيام التالية كانت قاتلة برتابتها . وظلّ التقويم ، على جدار غرفتي ، يتثاءب كل صباح عن يوم جديد ... وفي كل يوم أرى يد جدتي تمتدّ ، ببطء وتردّد ، لتمسح الأيام العابرة وتطرحها في النار ، وتعدّ ما تبقى من الشهر .

أحس الآن برعشة باردة تسري في أوصالي ، وأنا أتذكّر ثقل تلك الايام وبطء سير الزمن .

لا أدري لماذا تتمهّل الأيام في سيرها بين منفرجات القرية !

وكان شتاء ذلك العام طويلاً عنيفاً ، أمضيته وفي

صدري شغفُ انتظار .

حتى الآن لا أدري ماذا كنت أنتظر ، وما هـو الخيط السحري الغريب الذي كان يشدّني ، عبر آفاقنا البعيدة ، لأحلّق في المجهول ، وأقطع ساعات يومي في التأمل والأحلام .

ولم يبخل علينا الشتاء بأيام ضاحكة ، تزغرد فيها الشمس فوق جبال بيضاء ، وتلال تتوّجها أشجار الصنوبر الأزلية الخضرة .

حتى الساعة ، اعتقد أن اللون الأخضر في عيون ابناء القرية هو انعكاسٌ للأخضر المتموّج فوق تلك التلال .

وفي أحد تلك الأيام الضاحكة ، وقد اطلّت الشمس تعانق حقولنا بشوق ، وتقبّل قطرات الماء المتلألئـة فوق الحشائش ، وتمسح جفون الأرض الرطبة ، خرجتُ مع مِرسال ونجلا الى الحقول القريبة من طاحونة الماء ، لنجمع « السليق » ، والأعشاب البرية من خبيزة وهندباء وكرات .

أتوق الآن الى تلك الانطلاقات الحرة . أحسّ

شوقاً يدقّ جدران صدري ويدعوني لأهرع من هذه الزاوية الضيّقة ، بين أرجاء المدينة ، الى هناك ، الى حيث يقف الانسان ويرفع يديه ، فيحلق مع الهواء ، ويتطلّع عبر السهول البعيدة ، فلا يرتطم نظره بجدار غلّفه الغبار ، أو نظرات تتحدّاه وتحاول أن تعرّيه من ثيابه وتخرق عظامه بغلاظة وقسوة ، نظرات تحوّم كالأشباح المخيفة في شوارع المدينة .

أذكر النشوة العارمة التي كانت تغمر نفسي اذ تقع عيناي على بساط « السليق » ، فانحني على الارض في شبه سجود ، وأغرز السكين في الصلصال الرطب ، في التربة الرخصة ، أقتلع منها خيراتها ، وأملأ بها سلّتي .

واختلج حنوّ غريب بين أضلعي في تلك اللحظات النادرة ، حنوّ يشدّني الى الارض فأندفع لأسجد فوق التراب ، أحس لهاث الأرض يغمر جسدي ، وحصاها تغوص في ركبتيّ .

وأهيم ، وأمضي في هيامي . وتجري اللحظات

خفيفة ، منعشة . ثم يعيدني من خلوتي مع الارض صوتُ مِرسال ، أو لحنٌ شعبي تدندن به نجلا .

شعرت بشيء من الغيرة وأنا أرى سلتيهما تفوقان سلتي امتلاء .

كان ذلك ثمن تأملاتي وأحلامي !

واتجهنا الى نبع الطاحونة حيث الماء يتدفق بسخاء ذوباً من الثلوج المشرئبة فوق الجبال القريبة ، ويغور في شرايين الوادي ، يشدّه سحر المجهول .

كنت أطرب لصوت الرحى ، تدور وتدور ، لتطحن الحبوب السمراء ، ويجلجل هديرها بين منعطفات الوادي .

اقتربت من باب الطاحون لتمتص أذناي عربدة الصخب . كنت أرى في دوران الرحى قوة الزمن الذي يبري كياننا ، ويأكل رموش أعيننا ، في كل لحظة من لحظات الوجود .

نسيتُ نجلا ومِرسال ، وأنا أقف على سطح الطاحونة ، أعبّ السحر من الأصوات المزمجرة ، من

أنفاس الربيع، من امتداد خيوط الدفء...

تركتهما عند ضفة النهر تثرثران، وتغسلان الأعشاب. ولم تنسَ أنامل الطبيعة وجه مِرسال فمسحته بسحرها، وأطلقتها، الى حين، من لحظات الكربة والهم.

اتجهت عيناي الى نجلا، وتذكّرت كلام حنّة في الليلة السابقة، وفكرت: ماذا سيجري لها؟

الى أين ستقودها الألسن الخبيثة؟ الى أين ستصل نجلا بعد تزحلقها على لسان حنة؟

لقد سمعتها تقول: «عرفتِ يا انجلينا؟... عرفتِ شو قالوا؟»

وكان صوتها الهامس، المبطّن بالغموض والسرّية، يؤكد ان الذي يقال على جانب كبير من الاهمية. وكل شيء يصبح مهماً بالنسبة لإنسان يقضي لحظات يومه يحصي أنفاس الآخرين.

وتابعت حنّة: «قال نجلا بتحب كمال، يا عيب الشوم!»

لقد اكتشفوا أن كمالاً يحب نجلا، أو ان نجلا

تحبّه ...

« الاكتشاف » أصدق كلمة للتعبير عن هذا الوضع.

إن الأمور الكبيرة، او الصغيرة، في القرية، تبقى غامضة مجهولة، حتى يقيّض لها ان تُكتشف على أيدي أناس مثل حنّة.

كان الجيران يتساءلون: لماذا يُكثر كمال من تردّده على الطريق الضيّقة، المجاورة لبيت نجلا؟ لماذا يجعل طريقه من هناك بلا سبب؟ أوَيجذبه السلك السحري الذي نصبته نجلا من نافذتها؟

وكانت هي تقف خلف النافذة لا تجرؤ على فتحها، وقد الصقت وجهها بالخشب، وتركت عينيها تتسربان من الشق الضيق الى القدّ الزاحف في الزقاق.

أجل، كان كمال يزحف زحفاً صوب بيت نجلا. وكان يتمنى لو يزحف على ركبتيه، أمام والدها، ليفوز بها، ولكن ...

حاجز كثيف كان يقف بينهما، دون رحمة، ويجعل الحديث في هذا الموضوع حِرماً مُنزلاً، فقد

كانت نجلا من مذهب يختلف عن مذهبه ، وكان يعلم أن القتل ينتظره على أيدي الأشقاء وابناء العم اذا هو فتح فاه ، أو عطس الموضوع في وجه أحد .

وهكذا بدأ الاكتشاف تكهّناً على ألسن الجيران ، وهم يطلّون من الشرفات والنوافذ ، يقيسون خطى الشاب النحيل الأسمر وهي تنتقل بحذر الى حيث لا تدري .

« والله اشرف لها أن تموت ! »

عاد صوت حنّة يدق أعصابي ، وعاد فمها ينفتح وينغلق في خيالي ، وأنا أراقب يديّ نجلا تفركان التراب عن ضلوع الأعشاب البرية ، وتغوصان في العمق البارد بمرح اللامبالاة .

وردّت سعدى تتابع سلسلة الاحاديث : « بنات اليوم ما عادوا يتهدّوا . ما كنا نتجرأ نفتح سيرة الحب . بهالايام ما عاد حَدن يستحي . »

وقالت أنجلينا : « عِش كتير بتسمع كتير ! »

كانت الحلقة تعقد جلسة عادية على المصطبة ،

أمام منزل أنجلينا . وكان الحديث الهامس يزيـد في غموض المساء وكآبته . وكنت أقف بعيداً ، أسمعهن واتابع تبدل التعابير الملوّنة على وجوههن ، وقد تحولت الى ما يشبه وجوه الكواسر حول جيفة مهملة .

سمعت في صوت حنّة تشفّياً يقرب من لحن السعادة . وسعدى كانت تصبّ نقمة جمعتها السنون في صدرها ، وتحاول أن تسكبها في عبارة واحدة .

كانت سعدى امّاً لبنتين حرمها الله نعمة الجمال ، وسكب في وجهيهما من القبح مـا يحميهما من الرجال ، مدى الحياة !

وكان لـ « نجاة » ، وهي كبرى الأختين ، لسانٌ سليط ينسجم مع وجهها ، ويتحدّى لسان أمها . و « ليا » ، الصغرى ، كانت تعيش في ظلّ الأم والأخت ، تجتر كلامها ، وتعيد أقوالهما ، وتعجب بغلاظة العبارات التي تنصبّ زاخرة عبر باب الدار ، وتجرف في تيارها الشهد والإبر .

كانت سعدى ، اذا ما هاجها أمر وانفعلت

بحديث ، تسبل ضفيرتيها ، وتشد العقدة الدائمة بين عينيها ، تجمع فيها حقدها كله . ثم تفتح فمها ، تقذف منه الحمم ، ويبقى جسدها يرتعش ويضجّ في ثورة بدائية خشنة ، من قمة رأسها حتى الشقوق القذرة في باطن قدميها .

سعدى كانت جارة نجلا ، وكانت تمزقها سهام الغيرة ، وهي تتأمّل وجه نجلا العذب ، وقوامها البديع ، وحركاتها الرشيقة المرحة ، وثيابها البسيطة الأنيقة ، وتقارن بينها وبين ما فات نجاة ولميا من مواهب طبيعية .

ونجلا كانت، وحيدة بين أربعة أشقاء كبيرهم « هاني » . أعدّتها أمها « سلمى » ، منذ الطفولة ، لتعيش حياة وادعة ، ساعدها في ذلك عملُ الوالد ، وهو صاحب الدكان الوحيد في القرية.

نجلا أول فتاة ضفرت شعرها بالشريط الأحمر العريض ، وأول من استدعت الماشطة الى القرية .

وقوارير التجميل كانت تتكوّم فوق طاولتها الصغيرة ، تثير حسد الرفيقات ، وتدفع سعدى لتتحدث

عن المعجون العجيب الذي أحضرته ساحرة مجهولة لوجه نجلا.

« بنت بو هاني شو عا بالها ! كل يوم فستان جديد ، ما بقى تتهدّا . »

هذا ما رددته سعدى ذات مرة في حلقة أنجلينا.

واجابتها حنة يومها : « الله يستر عا بنات الناس ! »

أعادني صوت مِرسال الى الواقع . وخلتها تناديني عبر أودية بعيدة تعصف فيها رياح هوجاء . وركضت الى الساقية ، أغسل الأعشاب المكوّمة في سلتي ، وأغرق بقية تأمّلاتي في الماء.

أقسى شعور ، يواجه الواقع الانساني ، هو الوحدة ، أن يحسّ المرء نفسه وحيداً في هذا الكون.

وتزداد كثافة هذا الشعور اذا تصور الانسان أن المخلوقات كلّها هجرت الأرض ، وبقي وحده فيها ، لا يسمع حسّاً ، ولا يقع بصره على غصن يرتعش.

هكذا كان أبو راجي في الأيام التي تلت سفر وحيده.

لقد عاد الى البيت المهجور فخلع حذاءه ، ثم استلقى فوق الطراحة قرب الموقد البارد. وظل هناك طويلاً ، حتى طرق بابه أبو الياس ، وتحداه

لينازله في لعبة النرد .

لم تبدُ على أبو راجي الحماسة المعهودة فيه حين تذكر هذه اللعبة . كان يطرح الحجارة من اصابع ماتت فيها العزيمة ، ويحدّق الى الاشياء كأنه لا يراها .

كان ينتفض كل لحظة ، ويوجّه بصره صوب الباب ليعود فيتابع اللعبة ، وقد أطبق فمه تحت ثقل الخيبة .

عرف أبو راجي هذا الشعور ، ذات مرة ، يوم توفّيت أم راجي .

أحسّ يومها ثقل الفراغ . نفحت البرودة قلبه ، وجثم بلاط الهمّ على صدره . ولكن الايام ظلّت تمسح بمرورها بعض الثقل ، وتفرك آلام صدره ، حتى كاد يصدّق قول حنة : « موت المَرا مثل لطمة الكوع . »

وكان راجي يملأ البيت بوهج طلعته وحرارة شبابه ، وعادت الدار تمتلىء كل يوم بصحبه ، يسمرون فيها ويضجّون ، يعيشون أحلام الشباب .

ويعود الشيخ معهم ، على جناح الذاكرة ، الى ايام شبابه ، فيبسم لأمور كثيرة كان يعدّها يومئذ على جانب كبير من الأهميـة ، ثم جاءت الأيام فكشفت له عن تفاهتها . وها راجي يسير على الطريق يقوده النشاط الذي يعيش فيه الشباب ويتوق إليه الشيوخ .

وكانت تمرّ ببال الشيخ ، في أحيان كثيرة ، احلامٌ لا يجرؤ على التوقف عندها خشية ألّا تتحقق .

كان يرى راجي يدخـل باب الدار ، يتابط ذراع عروس ترتدي ثوب الزفاف الابيض النقي ، ويتطلّع وجه أبيه بسعادة ورضى . ثم يقفز من مشهد العرس الى حلقة يضجّ فيها الاطفال ، أحفاده هو . ويرى واحداً منهم يقفز الى ظهره ، ويداعب شعر شاربيه ، أو يربّت صلعته بيده الطريئة ، ويدغدغ وجنتيه ، ويطلب منه ان يسرد له حكاية الجنيّة الحسناء .

كان أبـو راجي يصرف هـذه الأحلام ببسمة

حائرة ، ثم يهرع لمتابعة أعماله ، فيحمل المعول ويخرج الى الحديقة ، ينقي تربتها ، أو يهوي بالفاس على قرامي السنديان ، يعدها لقمةً لقمةً لموقد الشتاء .

أما الآن ، وقد جلس أمام أبو الياس ، يسمع دبيب الزمن ويلعق غبار الأيام ، فقد شعر بعجز كلّي عن شق السبيل الى تلك الأحلام . وحاول أن يرسم وجه راجي ، وهو يطلّ من الباب ، كما كان يفعل في كل يوم ، فخانته الذاكرة .

كانت أوضح صورة لوحيده ، تجثم في خياله ، صورةُ اليد التي لوّحت بالمنديل في تلك الصبيحة الباردة .

غلبته العاطفة ، واغتصبت الدموع سبيلها الى عينيه ، ثم سالت قطرات منها بين ثنايا وجهه ، وصفعت ظهر الطاولة المنبسطة أمامه .

« ولو يا رجل ! شو قصتك ؟ كل شي إلو حدّ ... »

قال أبو الياس ذلك ، وهو يصطنع الدعابة

والمرح ، ثم تابع : « الله كريم يا خيّي بو راجي. غمّض عين وفتّح عين بتمر الأيام وبيرجع. مش معقول يتركك راجي. دخلك ، اذا بعث ياخدك بتسافر ؟ »

وهزّ ابو راجي رأسه : « والله ما بعرف يا بو الياس، ما عدت اعرف شي بها الدني . »

بعد ذلك ، داوم أبو الياس على زيارة صديقه كل يوم .

كان الرجلان يجلسان قرب الموقد ، يغرقان الوقت في ذكريات الشباب ، أو يلعبان بالنرد والورق. وكانت النارجيلة لا تفارق أبو الياس في هذه الجلسات . حتى اذا ملّا الجلوس خرجا يتمشيان بين الأزقة الضيّقة . وكانا يختتمان الرحلة ، كلّ يوم ، في مركز البريد .

بات هذا المركز المحجّة التي يقصدها أبو راجي وعجائز القرية ، يومياً ، يقودهم اليها شعور لا واعٍ وشغف غريزي لتنسم أخبار الغيّاب .

ظلّ أبو راجي يزور مركز البريد بعد ما

وصلته برقية تحمل نبأ وصول راجي . وراحت الرسائل تتدفق عليه حارّة مشتاقة . ثم مرّت الايام ، وخفّ سيل الأخبار .

« بسيطة يا بو راجي ، بيجوز أشغال راجي ما بتسمحلوُ يكتب دايماً . »

كان أبو الياس يغتنم كل لحظة ليخفّف من همّ صديقه . وظلّت الرسائل الشحيحة تزخر بالعاطفة والحنين الى البلاد . بل هذا كلّ ما كانت تحمله الرسائل . لم يكتب راجي كثيراً عن عمله وحياته الجديدة . وكانت الاسئلة تتراكم في خاطر الشيخ ، وتختلج في صدره ، ثم تسيل على الورق. وتبقى بلا جواب .

ظلّ أبو راجي مثابراً على زيارته لمركز البريد والاشتراك في الحلقة اليومية التي تعقد على السطيحة أيام الصحو ، وفي البهو المظلم ، في داخل الدار ، في الايام الباردة .

وكانت الأحاديث تنتقل من السياسة العالمية كما تعرفها القرية ، الى طلائع الموسم الزراعي ، الى آخر

الأنباء المحلّية . ويبقى الوعي مفقوداً من الحلقة ، فالناس فيها يشبهون المسافرين في محطة القطار : الانتظار هو العنصر الذي يقرّب بينهم ، ويجمعهم ، ويمهّد السبيل أمام الأحاديث الملوّنة .

وكان كلّ واحد يشترك في الكلام بجزء من وعيه ، ويبقى الكثير من ذلك الوعي في عينيه وأذنيه ، ريثما يسمع صفارة القطار ، أو يرى ضباب دخانه .

وكانت هذه الصفارة وقعَ حوافر الحصان النشيط في الزقاق الضيق ، السابح في بحر الانتظار .

وتطل كوفية « البوسطجي » من البعيد كأنها عَلَم من أعلام السلام في أحد الموانىء البعيدة .

وكثيراً ما كان السلام ينقلب الى حزن لاسع لاهب ، حين تُفضّ الرسالة ، وتلفظ أنباء الموت : موت شقيق ، أو أب ، أو أخ ، أو ابن ...

وطاحونة الحياة تدور برحاها ، ولا ترحم اولئك المهاجرين الذين سعوا على جناح طموح عاصف ليخرقوا المجهول ويبنوا فيه صروح غدهم .

ويرتفع صوت ثائر كالإعصار ، سرعان ما يسري في شرايين القرية ، بين الأزقة المتعرّجة ، ويصل الى كل أذن ، وتردّد صداه إحداهن : « يا ويلنا من أخبار الغربة ! »

تعيش حلقة الانتظار ، بمركز البريد ، في خاطري . واكاد الآن ارى الناس ، وقد علقت أبصارهم بالكيس الأسمر المقفل ، وحبسوا أنفاسهم خوف أن تتدخّل وتعكر صفاء الأحداث ، وأطبق على وجودهم صمتٌ ثقيل ، بينما أُرهفت الاسماع ، وحلّقت الأبصار تلاحق يد الموظّف تمتد الى الكيس ، تسحب منه رسالة ، ثم اخرى ... ويتلو ذلك قراءة الاسم . ثم تنفرط الحلقة ، وينطلق أحدهم كالسهم ليتناول الرسالة وينصرف ، أو ليوقّع على دفتر الرسائل المضمونة قبل أن يتسلم « البوليصة » .

وأبو راجي كان يتناول رسالته ويهرع الى البيت ليفضّها ، ويتمتع بقراءة كل حرف من حروفها .

وعندما يخيّب ساعي البريد آماله ، يحمل عصاه ،

يستند اليها ويشقّ بها سبيله الى الدار الموحشة ، وفي قدميه ضجّة السنين البعيدة .

كيف تموت اللحظات في المدينة ؟

المدينة الجبارة تفتح سواعدها العملاقة ، تضمّ اليها لحظات الزمن ، وتصهرها في أتونها الملتهب بالشهوة . تصبغها كلها بلون واحد مستمدّ من ألوان المساكن الغبراء والسطوح القذرة .

هذه هي المدينة في لحظات انتصارها ، وأنانيتها ، في لحظات قهقهاتها الهستيرية في الهيكل الإنساني .

وعلى الصفحة الغبراء ، تمرّ الألوان فتخلع زهوها ومرحها وجدّتها ، وتمضي تطنّ برتابتها في آذان الزمن .

وتكرّ الفصول متشابهة. ويراها الناس، هنا، من خلال الكوى الضيّقة في الأقبية الجاثمة على صدر التراب، من وراء مصنع يلهث البخار والعرق، من قلب مكتب فيه جدب الصحراء، وفي أنظارهم يتوالى الصيف والربيع والشتاء والخريف. الفصول كلها تنعكس في مرآة واحدة وتصبح وجهاً واحداً يتكرر أربع مرّات في العام.

وكلّما شقّق الربيع براعم اللوزة الصغيرة، قرب غرفتي، أنفذ ببصري الى ما وراء الأفق البعيد، الى حيث الربيع ما يزال يزور الأرض.

من قال إن غانيات المدينة أشد حرصاً على الإغراء من الارض، من بساتين اللوز والتفاح، وحقول القمح، وكروم العنب؟

في الربيع، حين تنفض العصافير الصغيرة قطرات المطر عن أجنحتها، وتهرع الى الاشجار، تتغازل على اغصانها وتحب، تصاب الأرض بنوبة هستيرية، وتخرق الغيرة عروقها، وتدفعها للبهرجة. والأرض

تغالي ببهرجتها ، تزين صدرها بعقود الأقحوان وشقائق النعمان ، تمدّ سواعدها في تثنّي الاشجار المزهرة ، ويفيض الخير من أثدائها ، يتدفق سخياً من عروق فتحتها عواصف الشتاء في جسدها .

وتظل قُبَلُ المحراث فوق ثغرها ، وقد شققته وتركت فيه خروقاً دامية .

ويشعّ الاغراء من كل مسامّ جسدها ، ويطفر من نور سابح في عينيها ، يدعو الناس الى الحياة .

وفي ذلك الربيع ، كان في تبرّجها نضج المرأة التي خبرت الحياة .

وظلت أنفاس الربيع تتدفّق حارة ، تبخر رطوبة خلّفها الشتاء ، وتمسح آثار الصقيع عن عينيّ الأرض .

وحرّك الدفء نشاطاً غريباً في أجسام الشيوخ ، فخرجوا يعقدون الجلسات على مقاعد حجرية أمام المساكن وبين الأزقة الضيقة .

دفعتهم الى الخروج القوة الحيّة نفسها التي تدفع النال الى ثغر التراب والنفاذ منه الى نور الشمس .

وسرت الأنفاس الحارة في شرايين الشباب ، في

خدودهم المورّدة ، وعيونهم البريئة الساذجة .

وراح الفلّاحون والرعاة يمارسون أعمالهم بنشاط غريب ، يلهب أعصابهم منظر الحيوانات تستجيب لنداء الربيع وتمارس الحب فـوق البسط المخضرّة وتحت السماء الأنيقة الزرقة .

وخرجت الصبايا الى الحقول ، يتحدين الأرض بمفاتنهنّ ، باستدارة الصدور والأرداف ، برشاقة القدود ، بغنج الأنوثة المبطّـن بالأثواب الطويلة الفضفاضة .

أكثر من حكاية حب نبتت في ذلك الربيع ، وظلّت حكاية نجلا تفوقها جميعاً .

بقيت الحكاية تروى وتزداد حلقاتها اتساعاً مع مرور الايام ، تماماً كما تتسع الحلقات في بركة الماء إثر سقوط جسم ثقيل فيها .

وفكّرت سعدى : إن الحالة لم تعد تطاق ، ومن واجبها ، كجارة وأم بنات ، أن تفاتح سلمى بالأمر وتخبرها بما يتناقله الناس من كلام على ابنتها نجلا .

وقبل أن تتحرك ، عقدت اجتماعاً مع حنة : « أنا شفتها بعيني . كانت معه في الخربة . قرب بيتنا . يا اختي ، سلمى لازم تعرف . »

وهزّت حنّة رأسها : « شافوهن كمان ببستان بو الياس . البنات ما بتنعطى حرية . »

وقبل ان تقوم سعدى بزيارة جارتها ، نفشت اخبارها في كل أذن ، وبات الجميع يرون الوجه المعكوس للقصة .

لا تذكر نجلا متى بدأ الحب يتفتح في صدرها ، وكيف اختارها لتشارك كمال في حبك الرواية المفعمة بالعذوبة والشقاء .

أحبّته حين كان يزور الأسرة فيسمر مع اخوتها ، ويسرد الطرائف والأخبار الشائقة ، ويبادلها نظرات طافحة بالمحبة والإعجاب .

أحسّت يومها أنها أحبّته دائماً ، ولم تحاول أن تتذكر منذ متى .

وظلّ حبهما يكبر بصمت ، ولم يجرؤ أحدهما على

تسميته أو البوح به .

اقتربت مرة تقدّم له فنجان القهوة ، وهي تصطنع اللامبالاة والعفوية ، وتموّه مشاعرها ورعشة يديها بابتسامة سطحية . وظلّت تحدق الى الأرض ، الى السائل الأسود الحار ، كيلا تصطدم بنظراته .

ورأت يده تمتد ، وأنامله تحنو على الفنجان كأنّها تطوق خصرها أو تضغط ساعدها . وجمدت الأنامل حول حلقة الفنجان ، فرفعت بصرها تسأل عن السبب ، فرأته يحدق الى وجهها ، وقد نسي فيه نفسه ومكانه وزمانه .

وأحسّت أن « الصينية » ستهوي من بين يديها ، وأن شيئاً يتهدم في صدرها كأنه جدار ينهار . ثم تسارعت خفقات قلبها ، فلم تعد تصدّق أنها ستوصل الفناجين الحارة الى الضيوف .

« نجلا ! كلمة واحدة ، يا نجلا ... وعلى انفراد ، أرجوك ... »

سال صوته في أذنيها ، هزّها ابتهاله ، وهو واقف

في الباب يودّعها ، قبل أن يلحق بشقيقها ...

« لا ، يا ... »

وغصّت باسمه ، علقت الكلمة في حلقها ، انغرزت في صدرها كالألم . فانقض بيديه القويتين على يدها يكاد يسحقها ، يصبّ فيها كل معاناته . ثم غيّبته الظلمة . وبقيت هي واقفة في الباب ، تبتلع جزعها، وتهدهد اليد التي كوتها النيران .

عاش الحب حملاً ثقيلاً في صدر نجلا . كانت لا تجرؤ على البوح به لأحد . فقد أوقعها القدر في براثنه : في ابغض المحرمات بمفهوم القرية .

إن كل حب ينتهي بزواج . ولكن ، أيرضى اشقاؤها بهذه الفضيحة ؟ وأبوها ، أبو هاني ، كيف يتحمل هذه الصدمة ؟

ابنته تحب شاباً من غير مذهبها !

وكلما فتحت نجلا عينيها على صباح جديد ، كانت تسأل نفسها : « لماذا ؟ لماذا اختارنا القدر ، يا كمال ، لنذوق معاً هذه الآلام ؟ »

وكانت تقف أمام نافذتها الصغيرة ، تتطلّع صوب

بيتـه ، فترى حاجباً مـن القرميد والحجـارة ، وتلمحه ، أحياناً ، يقف هناك ، يحاول أن يخرق الحجارة الصلدة ، ان يحطمها في سبيل الوصول اليها .

وفي لحظات اليأس ، كانت الحجارة تبدو مكشّرة عن أنياب السخرية ، تقهقه ، وتبقى قهقهاتها الهستيرية تغور في عينيها وتحطم أعصابها . فتنقضّ على النافذة تحكم إغلاقها كما تغلق عقلها كيلا يبحث عـن الحلّ .

وفي لحظات تأمّلها ، كانت تحاول أن تجد هذا الحل ، وتروح تبحث عن السبب الذي يحول دون زواجها بكمال .

لم يكن السبب منطقياً . كان أفكاراً جامدة متحجّرة ، بقايا الأجيال الماضية ، آثار حوافر الخيول الغريبة التي داست تربة القرية ، سموم الرياح التي هبّت عبر السنين وعششت في رئات السكان . وبقيت كالأسماك المتحجرة التي يكشفها علم الجيولوجيـا من حين الى آخر في ثنايا تربتنا . لقد شاهدت مرة احدى تلك الأسماك ، وقلّبتها بين يديها . كانت سمكة

حقيقية في أحد الايام، فلو قدّر لها ان تتبع مجرى الطبيعة، لانحلت ذرّاتها الصغيرة وانتشرت في زوايا مجهولة من الأرض. غير أن العناصر المخالفة للطبيعة قويت عليها، وحجرتها، وتركتها صلبة عنيدة، تخضع لسلطان واحد: التحطيم.

لا، نجلا لم تكن تقوى على تحطيم حصاة صغيرة. نجلا، الدمية الصغيرة الجميلة، ذات القوام الممشوق، والشعر الكستنائي المسترسل فوق الكتفين، والعينين الحالمتين، الغارقتين في بحر من الزيت والعسل...

ونفذت عبر أفكارها الى حلّ آخر، وفكّرت في التحدث الى هاني. أخوها هاني من جيلها، يفهم أفكار الشباب، ويحسّ قوّة الحب.

أيفهم هاني؟

أيساعد؟

لا، لا، يا نجلا.

وتذكّرت هاني، ذات مرة حين روت له قصة حب قرأتها في كتاب.

لقد تحوّل أخوها المحبّ، ذو النظرات الحانية،

الى إنسان آخر ، في نظراته قسوة أجيال بعيدة ، وعلى شفتيه رعشات الرجولة المُهانة .

هاني ، سيكون أوّلَ من تُصاب رجولته بطيش المغامرة .

«لا ، ليس هناك سبيل الى لقائنا يا كمال ! »

هذا ما يجب أن تقوله حين تلقاه ثانية .

ولماذا تلقاه ؟

سوف تنسحب كالطيف من درب حبيبها دون أن يحسّ أحدٌ بالأمر .

كانت الأفكار تحملها على متنها ، وتعود بها من جولات كثيرة . وكلّما حاولت أن تفكّر في موضوع آخر ، كان وجه كمال يطفو امام عينيها ، وتخرق عيناه السوداوان الذكيّتان عظامها .

« نجلا ! لحظة ، يا نجلا ... أرجوك . »

كانت نجلا ، في تلك الأمسية ، عائدة من زيارة صديقة ، وكادت تطأ عتبة الدار حين تصدّى لها ، ووقف في سبيلها كالصفعة ، وأنساها الليل الزاحف

ليطوّق المساكن الصغيرة ، والعاصفة الهائجة بين بساتين العنب والزيتون .

وقبل أن تستعيد قوّتها الفكرية ، وتهرب منه ، انقّض على ساعدها ، وجرّها الى مخبإ في الخرب المجاورة .

« نجلا ! لا تخافي يا نجلا . لستُ وحشاً مفترساً . لماذا ترتعدين هكذا ؟ أريد أن أتحدث إليك . وهذه هي الوسيلة الفضلى . »

وظلّت نجلا ترتعد تحت وطأة الصدمة .

« اتركني ، يا كمال . لا فائدة من الكلام . اتخذت قراري و ... »

وخارت قواها ، فارتمت فوق كومة من الحجارة غير عابئة بالماء وبقايا التراب .

وفي لحظة ، لمعت افكار كثيرة واضحة في رأسها ، وشعرت بأنها أضعف من أن تواجه العاصفة ، وتقف أمام العنف الناري في عينيه . وعاد صوته يتوسّل :

« نجلا ، سوف أريق دمي لحمايتك . الدنيا أمامنا واسعة . تعاليْ نهرب الى أبعد أطراف الدنيا . تعاليْ

نبنِ دارنا فوق مشارف حبّنا الكبير ... نجلا ، عشتُ حياتي من أجل لحظة كهذه . »

وخرَّ أمامها على ركبتيه ، غير عابىء بالتراب الرطب ، وأخذ يديها الباردتين وانحنى فوقهما يجرحهما بقبلاته ، يعيد إليهما الحرارة ، وينفث فيهما شوقه وحرمانه .

ولم تقاوم نجلا ولم تتحرك . لقد شلّت المفاجأة فكرها وحركتها . ورأت نفسها تستسلم دون إرادة كأنها ريشة في تيّار عاصفة هوجاء . لقد شعرت بأنها تجد نفسها للمرة الاولى منذ وجودها .

« نجلا أحبك . قولي : نعم . أي كلمة منك يا نجلا . مُريني اطعك . انا عبدُك ، ألا ترين ؟ »

ورفع يديه الى كتفيها ، يهزّها ، وقد هاله صمتها وجمودها . ولم يعد يقوى على التراجع . كانت قوة خفيّة تحرّك أعصابه وارادته ، فينهمر الكلام على لسانه ، ويخرج من بين شفتيه هذياناً محموماً .

تلك الارادة نفسها كانت تتحكم بجسده ، فاذا به ينفصل عن كيانه الواعي لينصب وجوده في شفتيه .

واذا طموحه كلّه يُخْتَصَر في تَوْق لاهب الى معانقتها . وفي حالة اللاوعي هذه امتدّت يداه تجمعان رأسها ، وخصلات شعرها . وغارت شفتاه تسكبان الحياة في شفتيها ، وتشعلان فيهما نيران وجده .

كانت تلك محاولة كمال اللاواعية لإقناعها . وانتفضت نجلا ، وهي تطرد شبح الحقيقة ، وترجو أن يكون الواقع حلماً ، وتفكر أن شفتيها سوف تحملان آثاره مدى الحياة .

دفعته عنها بيأس ، ثم انطلقت كالسهم الى الدار ، تحتمي بها منه ، وتهرب من هول تجربة لم تستعد لها . وفي هذه اللحظات لم تلتفت الى ما حولها لتتأكد من خلوّ السبيل .

وصدف مرور سعدى ، فرأتها تندسّ خلف الباب . ثم شعرت بوطء أقدام تخبط وجه الزقاق الضيّق ، ولم يكن صعباً عليها أن تعرف كمال .

هرعت نجلا الى غرفتها وارتمت على السرير ، ترتاح من هول الصدمة ، وتتحسّس شفتيها بأنامل

واجفة لتتأكد أن الـدم لم ينزف منهما ، وأنهما لم تنتفخا من حمل التجربة . ثم وقفت أمام المرأة تحدّق الى وجهها المذعور ، وقد تلاشت تقاطيعه ، وتجمعت فوق الشفتين .

أذكر جيداً ذلك النهار الربيعي .

تسلّلت أنفاسه المعطّرة الى رئتيّ ، فرحت أعب الدفق المعطّر الدافىء ، وفي أذني تزغرد أصوات النهوض في القرية :

صياح الديكة في الجوار .

وصرخات الدجاجات ، وقد نفخ الحب شرايينها ، فاحمرّت الوجوه ، وبات كيانها مستعداً لوضع البيض .

وخوار الأبقار في الساحة القريبة حيث تتجمع قبل الانطلاق الى المراعي .

ونهيق حمار تحت النافذة .

« سنفونيا » الصباح، حجبتها طويلاً عواصف الشتاء البارد ، وغلّفها قناع صوتي في الأيام الطويلة الماطرة . ومدّ الربيع أنامله يمسح القناع ، ويفرك الاعصاب ، ويدفع الدماء حارة في الشرايين الحيّة .

تسلّلت نكهة القهوة المطيّبة الى خياشيمي ، فقفزتُ من فراشي ، وقد انساب النشاط في عروقي ، ودفعني في توق الى الرقص والطيران ومعانقة الجميع .

« أحب أن أعيش يا أمي . إنها نعمة كبرى أن نحيا ، أن تكون لنا هذه الحواس فتصلنا بالوجود ، نستقي بها القطرات العذبة المنعشة . »

وتجاهلت أمي فلسفتي وهي تناولني فنجان القهوة . ثم جلسنا فوق المصطبة ، نهضم أنفاس الصباح ، واللوحات الرائعة المطلّة على قريتنا .

حدّقتُ الى وجه أمي ... الى التقاطيع الهادئة الصامتة ، وقد بدأت تغزوها ثنيّات مزعجة تحدّت جهودها الساذجة لصدّها وتجنّب أذاها .

في كل صباح ، في كل يوم ، كان هناك أبي وامي والجيران يلتفّون حولي ، يطوّقونني ، يدفعون خطواتي ، ويحصون أنفاسي .

وفي ذلك الصباح ، تمنّيت لو أفعل شيئاً لأكسر الطوق . لم يكن تصرّفي تحدّياً لهم ، بل توقاً الى الحرية ، الى تحسّس وجودي المستقل ، الى الانفلات مع ذاتي المنفصلة عن الجميع .

وأضحك ، الآن ، حين أفكر بجدّية تفكيري ساعتذاك . لقد علّقت مستقبلي كلّه على تلك اللحظة .

هربت من البيت دون أن أخبر أمي . كنت أقوم بمحاولة أولى للاستقلال ، لأثبت لنفسي أنه يمكنني ان أغلق باب الدار خلفي دون استئذان أحد .

لم يكن لي هدف معين . رأيتني أسير على درب الكروم ، أعانق الهواء ، وأضرب الأرض بقدميّ ، وأنحني من وقت إلى آخر فألتقط الحصى ، أداعبها بين أناملي ، أو أرشق بها شجرة قريبة .

وظللت أسير ، يرافقني وقع خطواتي فوق الحصى ، وصدى صرخات الطيور المذعورة بين أشجار الزيتون .

وظلّت قدماي تسيران صعداً الى شرفة القرية ، الى صخرة « القرقار » الكبيرة ، متنزه أهالي القرية أيام العطل والآحاد .

منذ متى تحمل الصخرة هذا الاسم؟ لا أحد يذكر تماماً .

روى لي أبو الياس ، ذات مرة ، أسطورة « القرقار » الذي عاش في القرية منذ مئات السنين .

كان ناسكاً يسكن كوخاً صغيراً منعزلاً عن الناس . وكان يقضي أيامه متربعاً على عتبة الباب ، وبين يديه كتاب قديم .

ويمر به السكان ، يلقون عليه التحية ، أو يحملون إليه أطباق الطعام وأرغفة الخبز ، فيحفظها في خزانة صغيرة لتجفّ وتتعفّن قبل أن يأكلها .

وكان يردّ على التحية بهزّة من الرأس ، او إشارة من اليد .

لم يكن أحد يعرف صوت «القرقار»، ونوع الكلام الذي يخرج من بين شفتيه. اعتاد السكان أن يروه، كل مساء، متأبطاً كتابه، متّجهاً نحو الصخرة، فيجلس عليها ويتأمل الطبيعة. ويفلت لسانه فيكرّ الكلام من بين شفتيه مثل حبّات السبحة.

اكتشف سرّه بعضُ الصبية الصغار، وأخبروا السكان به. وحين توجّهت جماعة منهم، في اليوم التالي، لتكتشف سرّ الناسك، لم تعثر له على أثر.

لم يعرف أحد كيف تلاشى الناسك. وبقيت الصخرة تحمل اسمه حتى اليوم.

ظلّت الاسطورة تنتقل عبر الأجيال مثل عشرات الأساطير التي تعيش في القرية:

باب «السكّرة»، حيث شاهد أبو خليل، جد جدّتي، الجنّية الرائعة تمشط شعرها بمشط الذهب، أسطورة.

وأبو نوّاف، صاحب الطاحونة، كان يلتقي، كل ليلة، بعد انصراف الزبائن، جماعةَ الجنّ

الذين اختاروا الطاحونة لإقامة حفلات الزفاف .

وهذه أمتع اسطورة .

الاساطير ، والجن ، والتعاويذ ...

مرّة احرقت جدّتي حفنة بخور لتطرد الأرواح الشريرة من البيت .

ومنزل أنجلينا كان « مسكوناً » قبل أن تدعو الكاهن ليصلي بين جنباته . كان يسكنه الجنّ .

وأم الياس نذرت أن تقدّم للعذراء « دزّينة » شموع ، إذا وجدت غطاء الطاولة . « استعاره الجن » ، أكّدت أنجلينا ، ليفرشوه في العرس .

والعين الفارغة !

جفّ الحليب في ضرع البقرة ، فهرعت ام سليم الى سعدى ، وطلبت اليها أن تطرد العين . كانت هذه واحدة من صفات سعدى . عُرفت أنها تحفظ الرقية ، وإليها تهرع النساء في الأوقات الحرجة :

« مرض الطفل . »

« سمّي لي على خرقة بالزيت . »

« احرقي حصّ ملح . »

« ذوّبي زرّ رصاص . »

وسعدى تؤكد للجميع أنها أوتيت من المقدرة ما يؤهلها لترى صاحب العين الفارغة . ترى وجهه يرسم في الرصاص السائل ، ولكن لا يجوز أن تخبر عنه أو تتلفظ باسمه .

سكان القرية يشيرون بالأصابع الى أصحاب العيون الفارغة ، فتهرب الأمهات باطفالهن من دربهم .

ولا يسمح للأبقار السمينة الحلوبة أن تُصاب باعينهم .

خلعتُ حذائي لأتمكّن من تسلّق الصخرة .

بناء جبّار من الحجر الصلد يشرف على الأودية والتلال ومساكن القرية .

إنها قلعة جبّارة ، سطحها منبسط يسمح للصبايا بأن يعقدن فوقه جلساتهن .

انحنيت اتلمّس النواتىء الحادّة على وجه الصخرة ، وأجرح أناملي بملامستها . ثم جلست عليها ،

ومددت رجلي ، ورفعت ساعديّ في محاولة للطيران .

وحرّكني شعور غريب ، قـد يحسّه الانسان عندما يتحرّر من جاذبيّة الأرض ، والثقل المادي . دام هذا الشعور لحظة واحدة وفكّرت : لو تتجمّع الحياة كلّها في هذه اللحظات من النشوة النادرة !

كنت أعوم بخفة فوق بركة من نور غمرتها الشمس باشعتها الدافئة ، وراحت الألوان تنعكس على صفحتها في تجدّد مستمر .

نسيت خشونة الصخرة ونواتئها المنغرزة في ساقي . نسيت البرودة الناعمة المستقوية على شمس الربيع . احسستني جسماً اثيرياً يحلّق ويصعد منعتقاً من كل قيد .

وراحت القرية تصغر تحت وقع نظراتي ، وتتحوّل ألوانها ، فلا أستطيع تمييزها . وظلّت تصغر حتى باتت بحجم العنكبوت .

ورأيت دروبها المنتشرة في كل جانب ، الموزّعة بلا تصميم ، رأيتها تتحرّك وتجري بها فتصل شرايينها بشرايين العالم المقيم وراء الأفق .

كنت أجهل ذلك العالم كما أجهل اليوم دنيا الآخرة. وبقيت تصلني به أسلاك خفية غامضة، فاراه من خلال الكتب، وأحاديث الغرباء الذين يزورون القرية في فصل الصيف، ومن أحاديث «شامل» البيّاع الذي يحمل إلينا الأشكال الجديدة.

وظلّت الأحجام تصغر في عينيّ، والأشكال تتحوّل، والصخرة تضاعف سرعة انطلاقها، حتى أرجعني الى الواقع نعيقُ غرابٍ راح يحوِّم بالقرب مني فوق جيفه حمار.

كانت سهول كثيرة تنبسط في عينيّ. وفي خدّ السهول تتربع قريتنا، الينبوع الوحيد الذي يبادل الأرض الحياة.

القرية ومقبرتها تقيمان، هناك، برهان الحياة والفناء في تلك المسافات الشاسعة ... ثم تمتد الأرض حمراء، جدباء، خضراء، مخصبة أو حبلى بأشجار الزيتون واللوز، ومتورّمة بنتوء الصخور القاسية.

وراء كل سهل إنسانٌ مهاجر. وفي كل غصن، متهدّل فوق شجرة حزينة، شوقٌ الى السواعد السمر المفتولة تفتّت التراب، وتشذّب الشجر، وتعيد الى الأرض شبابها.

والسواعد تتلاشى. تلوّح بالمناديل من نوافذ العربات المستعجلة. عربات تزحف في كل يوم، وتهرب في دروب لا حدود لها.

وتبقى السهول تئن في جدبها. وتجف العروق في الكرمة المخصبة. ويتصل الجفاف بالمعاصر، فيغسل العاصرون أيديهم وأرجلهم، ثم يقفلون الأبواب، أو يحطمونها، ويلحقون بمن رحل.

وتنتقل عدوى الجفاف الى ضروع البقرات السمينة، الى الاثداء الناضحة باللبن في صدور الأمهات الصبايا، الى أرواح الشباب المتسكّعين في الأزقة الفارغة.

مسحتُ هذه الخواطر المزعجة، وشيّعت الحقول بنظرات عاشقة، وأنا أتمنى لو أبقى معلّقة هناك، في ذلك الوجود المنفصل، أعيش مع الصخرة وأطياف الأساطير القديمة.

« هل يموت الحب يا منى ؟

هذا الاختبار الذي حوّل حياتي ، وعاش لحظات عميقة في تفكيري ، هل يتلاشى في يوم ؟

هل أنهض يوماً ، وأمدّ يدي أتحسس المشاعر التي رافقت أيام الشتاء والصيف ، وعواصف الخريف ، ونسمات الربيع ، فلا أقع لها على أثر ؟ أجيبي يا منى . ساعديني بكلمة . »

كنت مستلقية على المصطبة الصغيرة ، أنعم بدفء الشمس ، وأفتح رئتيّ وحواسّي لأعبّ حرارتها ، ويداي منطلقتان تعملان في حياكة معطف من

الصوف . وكانت مِرسال تحمل الصنارة ، وقد تجمّدت في يدها ، ومات المعطف فوق ركبتيها .

ومضت تتكلم وكأنّ الكلام وسيلة لشفائها من آلام ما برحت تسحق أضلعها وتنحت عظامها .

عدت أحدّق الى وجه مِرسال ، فتراءت لي اللمسات القاتمة التي خلّفتها أيام طويلة من العذاب والشقاء .

واسائل نفسي ، الآن ، وأنا استعيد صور مِرسال من الذاكرة : هل يعقل أن يتضخّم الألم كذلك ؟ وهل في العالم نساء كثيرات أحببن مثل مِرسال ؟

وتعود صورة وجهها تتراقص في ذاكرتي ، في أوضاعها الكثيرة التي شاهدتها ودرستها ، خِلال تلك الايام ... الأيام التي تلت سفر راجي .

رأيتها مرة ، فقطّعت آلامها نياط قلبي .

كانت تجلس في غرفتي ، وتقرأ لي بعضاً من قصائدها . وفجأة طرحت الأوراق على الأرض ، وراحت تنشج وترتعش . وجمدت عيناها ، وهما تحدّقان ، عبر النافذة ، إلى الأفق ، حيث كانت الشمس

تنقل خطاها الأخيرة في ذلك النهار . واقتربت منها ، أحضنها وأهدىء ثورتها ، وأغمر شعرها ورأسها بين ذراعي ، وأنا في جزع وحيرة .

لا أذكر الكلمات التي تدفّقت من بين شفتي ساعتذاك . كانت أصواتاً بلا معنى ، كاللحن الذي تدندنه الأم في أذني طفل ممغوص .

وانهارت مِرسال من قمّة آلامها ، واتكأت على كتفي ، وقد صمت كل شيء حولنا ، ولم أعد أسمع سوى أنفاسها الهادئة .

مدّدتها على السرير ، وأنعشتها بقطرات ماء الزهر ، ثم جلست أمامها ، أنتظر ساعة يعود اليها وعيها .

ومرة أخرى خرجنا معاً الى النزهة في الكروم المجاورة . كنا نسير على مهل ، يسكرنا أريج عذب تبثّه الأرض من شقوقها الناضجة المستعدّة للعطاء ، وإذا مِرسال تتركني وتمشي بسرعة . وظلّت تسير وأنا أتبعها بنظري وأتأملها تصغر وتصغر ، عبر الطرقات المتعرّجة ، حتى رأيتها من بعيد تنهار فوق جذع

شجرة الزيتون. وحين وصلتُ إليها، كانت تضرب رأسها بالقشور الجافّة القاسية، وتمرغ كفيها بالنواتىء الجارحة.

ورأيت مِرسال، لدى زيارتنا لنجلا في عشية أحد الأيام، تعود الى هذه الحالة من اليأس والقنوط.

كانت نجلا تعرض علينا المذياع الجديد الذي اشتراه أبوها من المدينة ـ أول مذياع تعرفه القرية. أدارت المفتاح، فانطلقت منه أغنية حزينة، فيها شوق وبوح وألم.

وانتفضت مِرسال فجأة، ثم تركتنا وخرجت تهيم على وجهها بين الأزقة. وتبعتها مسرعة. كنت أخشى ان ترتكب حماقة.

واعترفت لي مرّة أنها وصلت الى شفير الهاوية وأحست أنها تقف على حافة عالم الجنون، بل أنها تخطّت العتبة، ودخلت ذلك العالم في لحظات كثيرة.

كنت أتألم من أجل مِرسال، وأفكّر في وسيلة تساعدها للتغلب على مشاعرها، ولم أكن أعلم، يومئذٍ، أن الزمن يشفي كل شيء.

وأعادني صوتها من تأملاتي .

لقد حفظتْ أنشودة واحدة ونسيتْ كل شيء :

راجي .

وفي غياب راجي زاغ الوجود في عينيها ، وفقدت الحياة قيمتها .

وحاولتُ أن أستخدم التأنيب أسلوباً جديداً مع مِرسال لعلّه يعيدها الى الواقع ، فقلت لها بجدّة :

ـ ألا تكبرين يا مِرسال؟ ألا تتغلبين على طفولتك وتنعتقين من عالمك الخيالي هذا ؟

ـ كيف يا منى؟ بالله عليك اخبريني . أجل ، اخبريني الآن . فانا مقبلة على تقرير مصيري ... سوف أدفن راجي وذكريات الأيام الماضية .

ومدّت يدها الى جيب خفيّ في ثوبها ، وأخرجت منه صورة شاب وسيم الملامح ، يبدو على وجهه الطابع اللبناني المتأمرك :

ـ إنه جون ، العريس الجديد ، جون ...

وحسبتها شطحة أخرى من شطحات مِرسال في عالم الخيال أو الجنون . وبدت الدهشة في انتفاضة

جسمي كلّه . وتابعت مِرسال موضحة :

ـ أجل ، ماذا تقولين أنت ، أيتها العاقلة الناضجة ؟ بماذا تنصحين صديقتك المقبلة على الزواج ؟ جوني ابن نازلي بو عمار . تسمعين بها ؟ انهم جيران عمّتي في المهجر . لمحت نازلي صورتي مع أخي شفيق فأعجبت بها . ثم دفعت جوني الى الاعجاب ببنت البلاد ، وحدثت أخي فقبل ، ولم يبقَ سوى موافقة الأهل .

ـ وأنتِ ، يا مِرسال ، ماذا تعرفين عن جوني هذا ؟ انك في حالة لا وعي يا صديقتي . تروّي ، فكري في الامر أكثر .

فأجابت يائسة :

ـ لم أعد أعرف شيئاً يا منى . لقد أضعت دروب حياتي وباتت كلّها درباً واحداً يقود خطواتي الى هدف معيّن ، اليه ... السفر هو السبيل الوحيد للهرب من هنا ، من أتون الشقاء .

ـ ولكنّه ضرب من الجنون يا مِرسال .

فرددت مستسلمة :

ـ الحياة كلّها جنون . بربك أخبريني ، ما مقياس العقل؟ ما الخطأ والصواب؟ أنت تعيشين في الخيال يا منى . أما أنا فسوف أتمرّغ في تراب الواقع ، سوف أرسل له موافقتي فوراً ، ثم ...

وخنقت كلامها الدموع . دموعها السخية كانت وسيلة أخرى لمسح الألم والياس . ولمحتُ قطرات منها تنحدر باستسلام وتستقر على المعطف الهامد فوق حضنها .

كلنا نعيش في هرب دائم . واذا حاول الانسان أن يعدّ سبل هربه يقف مشلول الحركة ، خائر التفكير .

نهرب من الفراغ ونحتمي بالعمل ، ونهرب من العمل الى المتعة . وحين يطاردنا الحرّ في الصيف نغرق في لجّة الأمواج .

وبعض الناس ينجحون في الهرب ، فيدعون ذلك سعادة .

لقد خلق الإنسان كل شيء استجابة لرغبة الهرب

في نفسه. الهرب من الفكرة التي تطارده عبر العصور. تطالعه في التراب، في نعيق البوم، في أنفاس المقابر.

ويتقارب الناس، يحيون قطيعاً دائم الحركة والثرثرة لينسوا. ويشدّ الرجل المرأة الى جسده، وتحبّ المرأة الرجل، تضيع في عالم قوته، وتفنى في ذرات جسده. ينجبان البنين، يحاربان الفناء بالاولاد، بالتناسل. ثم يكتشفان أن طاقة الهرب ضيّقة، فيرتفعان فوق التلال، وينطلقان في انبساط السهول، في الجو، الى ما وراء الفضاء. واذا هما في نهاية الطريق يتقابلان مع الشبح الذي طالما هربا منه...

كانت مِرسال تتوق الى الهرب من القرية، علَّ السبل المنفتحة عبر البحار توصلها الى نقطة الاستقرار، وتضع خاتمة للدوّامة التي تدور فيها، وتفتح لها الحياة صدرها من جديد

وحين ناداها ابوها ليسألها رأيها في المشروع

الجديد ، أجابت بالقبول . فكتب الى ابنه رسالة مختصرة قال فيها : « أعطيهم قول ، يا شفيق . »

لم أعد أتطلّع وجه أم شفيق بعد ذلك . كانت تعلم أن مِرسال مشرفة على الانتحار ، وأنه السبيل الوحيد لخلاصها مما تعاني .

شُغلت مِرسال ، في الأيام التالية ، باعداد الأوراق للسفر وتهيئة الجهاز .

كانت ثيابها لا تليق بعروس مسافرة الى اميركا .

« أم شفيق قويّة ، يا اختي . عرفت كيف تجوّزها بكّير ... » قالت حنّة في جلسة كانت تنعقد أمام منزل أنجلينا .

فردّت عليها العجوز كأنها تتفوه بلسان القدر : « الجواز سترة ، يا بنتي . وهيدي آخرة كل حرمة . »

ورددت سعدى : « دخلك ، شو صاير عليهن ، بنت وحيدة يبعتوها عا اميركا ؟ شو ، انقطعت الشباب بالضيعة ؟ هيدا كلّو دبّار عمتها نمّورة . بعد ما نسينا نمورة . »

دعتني مِرسال ، مرة ، لمرافقتها الى دار الخيّاطة « وردة » ، وهي جارة أبو راجي .

« قدماي لا تحملاني ، يا منى ، صوب بيته . هاتي يدك . ضعيها هنا فوق صدري ، وتحسّسي خفقان قلبي . لا أقدر أن أتصور الدار فارغة . أشعر بانه سيطلّ الآن من الباب أو من النافذة ، ويفاجئني بتحية مرحة . »

بقيت مِرسال تتحدث طوال الطريق ، وخفضت جِرْس صوتها حين وقعت عيناها على أبيه .

كان أبو راجي يجلس وحده على كرسي صغير ، يستمتع باللحظات الدافئة ، ويقلّب بين يديه أوراق رسالة .

وفاجأته بالتحية :

ــ الله معك ، عم بو راجي .

ــ منى ؟ أهلاً ومرحباً ... مبروك يا مِرسال . انشالله بتتهني .

وغصّت مِرسال بالجواب : « الله يهنيك يا عم ... »

تفضلوا ، اقعدوا . شو ، لويْن من هَوْن ؟

فأجبته مسرعة :

ـ واصلين لعند وردة شوي . شو أخبار راجي ؟

ـ نشكر الله ، يا بنتي ، مبسوط . ميّلي يا منى ، اقْري لي هالكلمة . ما عدنا نشوف مليح يا بنتي . البركة بهمّة الشباب .

تناولتُ الورقة اقرأ العبارة المستعصية ، فسقطت من بين الأوراق صورة صغيرة لاحقتها مِرسال بنظراتها ، ولم تجرؤ على أن تنحني لتلتقطها بيدها . فقمت عنها بالمهمة ، وتأمّلت الصورة ... كان راجي يقف بين اثنين من المهاجرين وقد حمل كلٌّ منهما كأساً . وقرأت على الوجه الآخر :

« عم نشرَب كاسك ، يا أبي ! »

حوّلتُ الصورة الى مِرسال ، وأنا أصطنع اللامبالاة : « شوفي ، هيدا راجي يا مِرسال . صار أميركاني . »

كانت مِرسال شديدة التحفّظ . وكان تحفّظها يزداد أمام أبيه . وكنت أعلم كم تتوق لتراه . وظلّت

لحظات تحدّق الى وجهه ، وأنا أتبادل الحديث مع الشيخ ، حتى سمعتها تقول : « وردة ناطرة ، يا منى . بخاطرك عم بو راجي . »

تابعنا المسير على نغم صوتها : « لقد تغيّر كثيراً يا منى . حتى ابتسامته لا تتصل بهذا العالم . رأيته غريباً ضمن الإطار الجديد . لمحتُ في عينيه سخرية تتحدّاني . ولكني لا أصدق ظنّي ، فما أزال أحبه ، وقلبي ينخلع كلّما وقعت عليه عيناي . »

ثم تابعت كلامها كأنها تحدّث نفسها : « تقع عيناي صدفة على وجه يطلّ من صورة ، فتسري الرعشة في عروقي ، وتخبط المشاعر جدرانَ صدري . وأحمل صورة أخرى هنا ، في الجيب الملاصق لجلدي ، أحملها ثقلاً يزيد في كثافة الضباب المعترض سبيلي . »

في تلك الليلة ، جلست مِرسال ، بعد ما نام والداها ، وكتبت أجمل قصائدها .

أخذت حنّة الأمر على عاتقها فقد شعرت فجأة بأنها تحبّ سلمى ، تلك المرأة الساذجة ، وأنها هي المسؤولة عن تدبير شؤون الآخرين اذا هم تخلّفوا عنها . وزاد حماستها حديثٌ دار بينهما وبين أم سليم منذ أيام ، لمست فيه ميلَ هذه الى تزويج ابنها : « دبّرينا يا حنّة ، هالصبي صار خرج الزواج ، وأنتِ بتعرفي بنات البلد . بدنا شي بنت حلال . »

وراحت تعرض معها الفتيات واحدة واحدة .

سليم شاب هادىء الطبع ، دمث الخلق ، لم يخرج

مرة عن طاعة أمه ، بل كان يخضع لإرادتها خضوعاً تاماً . ويحسّ أن هذه المرأة تألمت كثيراً من أجله ، وضحّت بشبابها من أجل شبابه . وكان هذا الدرس يتردّد على مسمعه طوال لحظات عمره ، ولم تترك أم سليم فرصة واحدة تمرّ دون أن تغرز هذه المعلومات في قلبه : « الأهل ما بيتكافوا . غضب الرب من غضب الوالدين . شو إلي بهالدني غير سليم؟ الله يخلّي ولاد الناس ويخلّيه ... »

وتجيش عاطفتها ، فتدفعها الى الاعتراف بفضائل وحيدها : «يقبر إمّو مثل الغنمة القرعا . أخلاقو مثل البنات . »

وسليم الطيّب ، المطيع ، عاش ليحقّق لها مفاهيمها ونظرتها إليه ، فكان يحسّ وخز الضمير اذا هو انحرف عن إرادتها قيد شعرة .

حين سافر أبو سليم ، في المرّة الاولى ، الى اميركا ، لم يكن الصبي تجاوز عامه الأول ، فنشأ تحت جناح أم تفتقد عاطفة الرجل ، تركها رجلها عروسة صبية ، وهاجر .

ولم يذكر أحد أن أم سليم تلفّتت حولها طوال غياب زوجها، أو حدّثت أحداً من الرجال. كانت مخلصة له الاخلاص كله. وعاشت حياتها على الرسائل الشحيحة يقتر بها عليها من حين لآخر. رسائل أبو سليم كانت مقتضبة تحمل أخباره وسير العمل، وتهمل العاطفة.

وتحوّلت عاطفة المرأة لتنصبّ في تيّار جديد. فقد جمعت حرمانها وقلقها ومخاوفها وحيويّة الشباب، وسكبتها كلها في حبّها لطفلها.

ظلّت ترضعه حتى جفّ الحليب في ثدييها. وكبر الفتى، وظلّ ينام قربها، يستمدّ أنفاسه من حرارة أنفاسها، ويصبّ شخصيته في قالب أعدّته بيدها، وينمو في كثافة ظلّها.

ومرّت الأيام، وسليم يحيا تحت خيمة من العاطفة المحرومة المسيطرة الجامحة.

ولما شبّ، وباتت له المقدرة على الاستقلال والانفصال عن أمه، أحس بعجزه، فظلّ يتفيأ ظلها راضياً، وينظر الى الكون بمنظارها.

وحين عاد أبو سليم من المهجر ، اقترب منه يعانقه ، يلفّ ساعديه الباردتين حول الرأس الأشيب ، ويتأمل بهدوء الرجل الذي عرفه من خلال أحاديث أمه . وحاول أن يتحسس طاقته على محبة هذا الرجل الغريب ، وقبوله ضمن اطار الاسرة ، فعجز . ولكنّ طبيعتـه المستسلمة بقيت تحجب حقيقـة مشاعره ، وظلّت الرابطة التي تشده الى أبيه تجمع البرودة والتهذيب والاستسلام المطيع . وكان ، في بعض الاحيان ، ينقل بصره بين أمه وأبيه ، فيراهما جسدين متباعدين ونفسين متناقضتين.

وجهها يرسم مأساة التضحية والعاطفة والتكريس، وأبوه صورة باردة تقيم في إطار مذهب .

وكأنّ الأب أحسّ بالصقيع يلفحه من موقد داره ، فارتعدت مفاصله وتاقت نفسه الى الهرب ، الى حياة اعتادها هناك ، في عالم منفصل تماماً عن عالم هذين الشخصين ، فلم تطل إقامته في القرية ، وحزم أمره على السفر من جديد .

ولما طلب من سليم أن يرافقه اعترضت الأم :

« اتـْركه يا بو سليم . خلّينـا نجوّزو ، وبعدين منلحقك . »

وهكذا سافر أبو سليم .

لقد ذاقت المرأة طعم السطوة والاستقلال مرّة ، ورسمت لحياتها مخطّطاً ثابتاً مكتملاً ، وباتت الأصباح والأمسيات تكرّ برتابة مريحة ، وأضحى وجود الزوج يضايق هذا النظام .

كادت أم سليم تؤنب نفسها وهي تجترّ هـذه الافكار ، اذ شعرت بشيء من وخز الضمير . ثم راحت تقارن بين شعورها الآن وتلك الأحاسيس التي هزّتها هزًّا وكادت تخلع جذورها لما ودّعها في المرة الاولى . لقد أحسّت ، يومذاك ، أن العالم ينهار ، وأن جسدها الناحل لن يقوى على الاستمرار في الحياة . وأوت الى دارها تجمع عاطفتها وتصبّها في دموع حارّة غزيرة تبلل وسادتها كل مساء .

فكّرت ، في إحدى المرات ، أن تجمع دموعها في قارورة تبعث بها اليه عربون وفائها وإخلاصها . فلما أشرقت الشمس في صباح اليوم التالي ، صرفت

الفكرة ، وحملت طفلها تناغيه وتطلّ على الوجود من خلال عينيه .

تضاحكت حنّة بخبث : « ولو ! أنتِ ست العارفين يا أم سليم ... »

ثم راحت تعدّد لها فتيات القرية ، وتبالغ في إظهار عيوب كل منهن ، حتى وصلت الى نجلا : « شو قولك يا أم سليم؟ هيدي بنت عاقلة ، كأنها خلقت من شان سليم . ان مشيت جنبه بتكون مثل التشكيلة ... نجلا أحلى الموجود . »

ومضت حنّة تتابع حديثها ، وتسرد المغريات التي تزيد في رغبة الأم ، حتى قالت : « وما تنسي بو هاني ، أحواله مليحة ... أنا بكفل إنه يجهزها . »

كانت أم سليم ، حتى تلك اللحظة ، تفكّر في أن المال لا يهمها ، ولكنها اكتشفت ضعفاً جديداً في نفسها ، ورأت أنها تبحث عن الأعذار لهذا الاستسلام :

« شو عليه اذا وفّرت على سليم كم قرش؟ »

سليم ، الشاب المدلل ، كان يعيش من خيرات

أرضه ، من دفق المواسم السخيّة : مواسم القمح والعنب والزيتون .

غير ان المواسم باتت جاحدة كأن ضرع الأرض قد جفّ ، وأمسكت التربة دفق خيراتها . وهذا ما كان يدعو أنجلينا لتردّد من وقت الى آخر : « رزق الله عا أيام زمان ! رجال العتق راحوا ، وراحت معهن الخيرات . »

أما أم سليم فاقتربت من حنّة أكثر وفي عينيها إشراقة أمل : « دسّي لنا النبض يا حنّة . انتي مثل أخت . »

ردّت حنّة شالها الرمادي على رأسها ، ولفّت أحد طرفيه حول عنقها ، وظلّ الطرف الآخر مفروشاً على جانب الصدر ، وراحت تحثّ الخطى الى بيت أم هاني .

كان حظّها كبيراً ، فقد وجدت سلمى جالسة على المصطبة مستسلمة للدفء ، ويداها تعملان في تنقية حبوب العدس ، تعدّ منه طعام العائلة .

وفاجأها سلام حنّة : « الله معك يا أم هاني ! »

وانتفضت سلمى : « اهلاً بحنّة ، أهلاً وسهلاً . إلو زمان هالقمر ما بان . »

– ما إلنا غنى عن الفضل . كيف الشباب ؟ وبو هاني ، عسا مبسوطين ؟

وهكذا مضت اللحظات الاولى من الزيارة في ترديد العبارات التقليدية ، والسؤال عن الخاطر والأحوال . ولم تُضع حنّة كثيراً من وقتها ، فولجت الموضوع بلا مقدّمات :

– شوفي ، يا سلمى ، إنتي بتعرفي غيرتي عابيتكم ، ومحبتي لنجلا . والجواز آخرة كل بنت . الجواز سترة يام هاني .

وتمتمت سلمى : « ما عنا شك بمحبتك يا حنّة ... »

وتابعت حنّة : « شو قولك بسليم ؟ أنا بشوف إنّو الشاب الوحيد اللي بيليق بنجلا . وهيدا شاب عاقل ، وبيكون طوع بإيديكن . »

– مثل ما الله بيريد يا حنّة . الله يخلّيه لأهلو

ويخلي كل ولاد الناس . بس أنا ما بقدر إحكي حتى شاور بو هاني والشباب .

ردّدت سلمى ذلك ، وقد بدا في صوتها بعض لين واستسلام .

وقبل أن تودّعها حنّة ، طرحت ورقتها الأخيرة :

« شوفي ، يا أم هاني ، البنات ما بينعطوا ريق حلو . ما تخلّو بنت صغيرة تتحكّم برقابكن . »

استخدمت سلمى حماستها كلّها وهي تسرّ بالموضوع في أذن أبو هاني : « أنا يا رجّال موافقة على طول . »

وردّ زوجها : « بس يا مرا ما بيصير . شوفي البنت شو بتقول . »

وانفعلت أم هاني :

ــ انت عم بتطمّع الأولاد كثير . أيمتين كان البنت لها رأي ؟ كنّا بنات وجوّزونا أهلنا . ما خرب الكون غير لمّا صار للمرا كلام . أنا بعرف دبّرها .

لم تكن مهمّة أم هاني سهلة كما تصوّرت. فقد كان جدارٌ كثيف من الصمت يقف بينها وبين ابنتها. أحسّت فجأة أن هذه الفتاة التي كانت، حتى الأمس القريب، طفلة غرّة، قد كبرت وباتت قوية، تقف على شرفة عالية. لذلك بدأت تهيىء الجو لمفاتحة نجلا بالأمر.

وأخيراً، جمعت شجاعتها واقتربت منها.

كانت نجلا قد فرغت من عمل الصباح، وجلست قرب النافذة وفي يدها شغلها اليدوي. فأعدّت أم هاني ركوة القهوة، وتقدَّمت تصطنع الابتسام:

ـ اتركي الشغل، واشربي فنجان قهوة.

وأحسّت نجلا، بحدسها، أن أمها مقبلة على حديث هام، فاستعدّت لمجابهتها بقوة، بتلك القوة التي نشأت في صدرها في الأشهر الأخيرة، وجعلتها واثقة بنفسها كلّ الثقة.

وكسرت أم هاني الجليد:

ـ يا بنتي، صار لازم تفكري بمستقبلك.

وزاد الخفقان في صدر نجلا. كاد الفنجان يهوي

من يدها ، فأسندته الى طاولة قريبة ، وعقدت يديها فوق صدرها ، تنتظر نهاية الحديث .

ـ أم سليم باعتي تطلبك لابنها . ما حبّينا نجاوب قبل ما نسالك . فشو قولك يا بنتي ؟

رفعت نجلا عينيها الى أمها تتأكّد انها تجلس أمامها بالفعل . ثم ضاع رأسها في دوّامة الصور الكثيرة : سليم وكمال ، يا لبعد الشبه بين الاثنين !

هذا تراه بعين الحب ، وذاك تكاد لا تشعر بوجوده .

كمال يندفع إليها بجرأة . يدفعه الحب . شلالات عنيفة من الحب تنساب بين أنامله من نور عينيه ، وتنصبّ جميعها عند قدميها . وسليم يبعث رسولاً الى أهلها ، لا يجرؤ على مقابلتها .

كمال يشرع أبواب العالم أمامها . وسليم يحاول أن يطبق على عالمها ويخنقها في شرنقة ضعفه .

كمال تقف رواسب الأجيال كثيفة قاسية وتفصله عنها ، وسليم تحمله إرادة عمياء ليعبر سبيلها ، فيصبح رفيق العمر وتاج الرأس !

وكادت تصرخ . غير أن صوتها اختنق في صدرها الهائج : « ولكن أنا لا أحبه يا أمي . »

وكأنها أشعلت بذلك فتيل المتفجّرة المكبوتة في صدر أمها ، فثارت سلمى .

تحوّلت الإنسانة المستسلمة ، صاحبة الوجه الوادع المنبسط التي تحيا بقوة الاستمرار ، الى لبوءة يثير شراستها انفعال قاس . وكشّرت اللبوءة عن أنياب نبتت لها في تلك اللحظة ، واندفع البركان يصبّ الحمم .

لقد تحرّكت فيها رواسب الأجيال . دبّت الحياة فجأة في السمكة المتحجّرة ، وباتت حوتاً يكاد يلتهم الصبية الحسناء .

لقد أكّدت عبارة نجلا لامها أقوالاً رفضت أن تقلبها من فم سعدى : « أن نجلا تحبّ كمال . »

وظلّت الام ترقص في ثورتها الجامحة ، فتمزّق ثوبها وتنبش شعرها ، حتى تملّك الفتاة رعبٌ قاتل ، وخشيت أن تكون أمها ، الهادئة العاقلة ، قد أصيبت بمسّ من الجنون ...

وسمعت نجلا شفتيها تردّدان : « كما تشاؤون يا أمي . ما تعوّدت ان أخرج عن خاطركم ... »

وحدي أنا بعدهم . وسوف يبقى لهذه الوحدة مكان رحب في صدري .

وظلّت قدماي تتبعان الدرب الضيّق ، تجتازان الفجوات والتعاريج ، تدوسان الحشائش الخضر . لقد أفسح الهجر في السبيل إليها ، فاجترأت على أن تطل برؤوسها الناحلة ، تثبت وجودها في ربيع الحياة .

إنه السبيل الوحيد الذي يقود إلى المقابر . والناس يمرّون فوقه في المناسبات ، ويجتنبون وطء حصاهُ في الأيام العادية . فرائحة الموت تفوح من التراب ، تزكّم أنوفهم ، وتذكّرهم بالحتمية ، بالنهاية .

ويهربون .

ولا أعلم ، الآن ، لماذا جعلتُ سبيلي من هناك ، في ذلك النهار .

لقد جفّ التراب على قبر مريم ، ونبتت فوقه الحشائش النديّة ، وبعض الزهور البرية .

يا للسخرية !

تسمّرت قدماي بين العالمين . حاولت أن أستوعب الأصداء من دنياهم الزاخرة بالحياة ، ومن ذلك العالم الصامت الرهيب .

عادت العصافير تبني أعشاشها في السنديانة الجبّارة . ومن حين الى آخر ، كانت تنبّهني الى وجودها زقزقاتٌ مرحة وخبط أجنحة تهمّ بالطيران .

وأمامي انبسطت القرية ، راضية ملتهبة بالحياة .

أنهم يستعدون للعيد الكبير .

كان عيد الفصح ، وما يزال ، أروع الأعياد عندنا . لقد أختار اليهود أجمل الفصول ليصلبوا المسيح . اختاروا الربيع !

ومرّ فوّاز بذاكرتي .

فوّاز لم ينتظر إطلالة الربيع ، ولم ينتظر حكم القانون ، فعاقب نفسه بالهرب من دنيا العاقلين .

رأوه مساء يوم . كان بعض الحطّابين يتوغلون في الغابات البعيدة ، وشاهدوا شكلاً آدمياً رهيباً ، كأنه وحش في صورة إنسان .

شعره مسترسلٌ فوق لحية مشعّثة ، وجلده تخفيه طبقة من الوحول والأقذار . وبدت ثيابه مهلهلة تكشف عن الجزء الأكبر من جسده .

مرّة واحدة أبصروه .

ثم اختفت آثاره .

لقد اختار كهفاً في سفح الجبل ، وأسدل ستاراً كثيفاً من البلاهة والجنون بينه وبين القرية . ونسيه الجميع .

انطلق الجرس في رنينه المرح . والشمس أتّكأت على الأفق الغربي . وظل نقاب وردي شفاف ينسدل على صفحة حرمون ، يلوّن الثلوج الناصعة بلون

الغسق الرائع . والأفق بدا مشتعلاً مثل أتون ينصهر في جوفه معدن البرونز .

وسمعت خوار بقرة في حقل قريب ، ونداء الناطور في الكروم البعيدة ، ومزمار قصب تجرح حنجرته أنغام الحنين والعذاب .

وعدت انقّل بصري فوق السطوح الترابيّة المتواضعة.

كانت المداخن السوداء تنتصب مهجورة باردة . والنوافذ الضيّقة مشرعة تجرع الدفء وتعب النسمات المضمخة بعطر الربيع . وفي البيوت ، الناس يُنهون الاستعدادت الأخيرة لليوم التالي ، يوم العيد .

غسلوا الفرش والأثاث ، نزعوا عنها أنفاس الدخان ولمسات الرطوبة الباردة .

أعدوا الأطباق الشهيّة ، والحلوى اللذيذة . ولَمّعَت النساء الأباريق النحاسية استعداداً لقهوة العيد .

ولما انتهوا من هذا كلّه ، غسلوا أجسادهم بالماء الحار ، و ... وداعاً يا فصل الصقيع !

« عقبى لاولادك يا أم سمير ، تمت خطبة سليم

ونجلا ... عيّنوا العرس بعد العيد . »

رافقتني عبارة حنة مع كثير مـن الأقوال التي رددتها صباح ذلك اليوم ... لقد حملت نتيجة حصادها وجاءت تشرب قهوة الصباح عند أمي .

كانت حنّة تعيش معنا في المدّة الأخيرة . أقوالها تنحني فوق الطبق ، تسير معي في دروبي . كانت تود لو تجعلني هدفها التالي : « ودخلك ، شو ناطرة مـا بتخطّي منى؟ اللي بيجي اليوم مـا بيجي بكرا . فكري يا أم سمير . »

عدت أوقظ الحصى النائمة على الدرب الضيّق ، وأفكّر : ماذا أنتظر ؟ ما هو الهدف الذي أسعى اليه ؟ ليتني أتطاول نحو عتبة الغد ، أطرق ابوابه ، ألجه وأقرأ الصفحة المكتوبة باسمي !

وكنت ألمحه من وراء الأفق ، من النافذة الغربية ، في مكان غروب الشمس ، وأتمنى لـو أتعلق بأحد حبالهـا الذهبية وأنطلـق معها في إحدى جولاتهـا البعيدة .

لم أكن أصدق أن الشمس كوكب ثابت ، فقـد

كانت حياتنا مستمدة مـن حركتهـا ، مـن ساعات الشروق والغروب .

مِرسال وجدت سبيلها ، وصوبه حوّلت خطواتها التالية .

ونجلا خنقت مشاعرها ، وسارت مع القطيع .

ومريم هناك بين دفتّي الرخام البارد .

وأنا ؟ أنا أقطع الدروب قلقة ، تعصرني وحدة قاسية ، وتجرح قدميّ سبل الغد وأشواك الحيرة .

ماذا انتظر ؟

الحق مع حنّة .

لست أدري ماذا . غير أني بقيت أنتظر وأهرب من التفكير في مصيري ضمن تلك الحدود الضيّقة .

كانت ترعبني فكرة الغد اذ أرى نفسي مثـل « شاهينة » ، و « ألماس » ، و « عدلا » ، وسواهن من النساء .

إن قيمة الواحدة منهن ووجودها الانساني كلّه يتوقفان على عدد الأولاد .

وتدور السنة دورتهـا ، وتبقى المرأة منهمكـة

بالحمل ، والرضاعة ... او بالاثنين معاً .

ويتدفَّق الأطفال من آلة التفقيس : واحد ... اثنان ... ثلاثة ... ثم يضيع العدد .

أمْ شعرها الاشعث يتهدّل على كتفين خائرتين ، وقميصها مشقوق عن الصدر ليسمح للثدي الذابل بان يتدلَّى ، ويندس في الفم الشره . وثوبها بهتت ألوانه ، ونسلت خيوطه ، وتهدّل على ساقين كساهما الشعر والغبار .

شاهينة ، وعدلا ، وألماس راضيات . ترسم الواحدة منهن بسمة بلهاء على شفتين مقرّحتين ووجه طلاه الغباء ، وتمضي عبر الأزقة ، تردّ الرضيع الى صدرها . ويتعلّق بها أطفال يسحّ المُخاط من أنوفهم ، ويأكل العمش عيونهم ، ويلتصق الذباب بشفاههم .

وأبو الأطفال يكدح طوال نهاره . يحفر التراب باظافره . يفتّت الصخور بساعديه . ويدفن أتعاب نهاره في ضجعة الليل .

ويطل طفل جديد .

لا . لن ابقى هنا . بقائي لن يعيد المرح الى

الأمسيات الساحرة . لـن يعيد الخـير الى الأراضي الجدباء ، والحركة الى القناطر المهجورة . يداي تجهلان إطعام دود القز وغزل الحرير . وأذناي لم تعتادا سماع « طقّة » النول .

وتابعتُ الزحف في الطريق المهجور وأنفاس المساء تتململ بين أوراق الزيتون والسنديان ، وتهفّ عليّ ، من الأفق الغربي ، ناعمة مطمئنة ، تضع الخاتمة ليوم آخر .

اشرقت الشمس هنيئة راضية . بدت كامرأة قضت الليل بين أحضان رجل تحبه .

وراحت توزع دفئها ، وتعكس سعادتها على البساتين الخضراء ، والجو النقي من الغبار .

استيقظت القرية على قرع الجرس . وراحت الأصداء النحاسية تستغيث ملهوفة ، تصرخ من بين شفتيّ القبّة البيضاء ، وتنطلق عبر الوادي الى التلال والقرى المجاورة .

وشرع الجيران أبوابهم باكراً . وهفّت نكهة القهوة عبر النوافذ المشرعة . وامتلأت الأطباق

بالحلوى الشهية .

مرّة واحدة ، في كل عام ، تُخرج جدتي الطبق لرخاميّ المزركش لترصف فوقه ضيافة العيد .

ألمحُ أصابعها اليوم وهي تتلمّس الصفحة الباردة ، تحنو عليها بعطف ، كما تتلمس الثياب المخبأة في لصندوق الخشبي العتيق . بعضها باق من جهاز لعرس !

وتردّد جدتي عبارتها التقليدية : « رزق الله عا أيام زمان ! »

استعدّ الشباب للعيد ، وبدأت وحداتهم تطلّ عبر الأزقة لتتجمّع في ساحة الكنيسة .

« تودّعي يا مِرسال . تودّعي من العيد . »

شيّعتنا أمي بعينيها ونغمة صوتها حتى باب الدار . ثم انصرفت لقضاء بعض الأعمال . وسرتُ مع مِرسال الى ساحة الكنيسة .

كانت مِرسال ترتدي ثوباً جديداً يتحدّى بألوانه مروج القرية ، وقد صفّفت شعرها بطريقة تنسجم مع

نضجها واختيارها بالتجربة الجديدة. وظلّت طفولة بريئة تتموّج في عينيها الساهمتين، وقد بدتا، لأول مرة، غريبتين في عرس القرية.

مِرسال عروس الموسم.

وأثار وجودها موجة من الذهول والهمس.

الأطفال المتجمهرون في زوايا الساحة راحوا يتخابثون بضحكات عارية. والشباب تحوّلت أعينهم بحسرة صوب العصفورة العذبة التي ستطير، بعد أيام، من أجوائهم، وأخذ كل منهم يبدّل حسابه.

وصبايا كثيرات عجزن عن إخفاء غيظهن، وعضّة الغيرة في صدورهن: لِمَ اختارها الفارس الملثّم وحدها من دونهن؟

كانت سعدى تقف مع بنتيها قربنا، فتطاولت بيدها لتلمس ثوب مِرسال: «شو هالْحلو يا مِرسال؟ انشالله بتتهني، وبتوصلي بالسلامة.»

ثم لم تلبث الأفكار الفرديّة أن انصهرت في حلبة الدبكة، وتشابكت السواعد والأيدي بعزم ومرح، وثارت الأقدام حين نفخ هاني في «منجيرته» القصبية،

وبدأت الأرض تئنّ .

وظلّ الجرس يخلع شرايين قلبه . وبقي صداه النحاسي يتلاقى مع أنين القصب وثورة الأقدام الفتية . أبو الياس وأبو راجي يراقبان المشهد من ركن بعيد ، وقد اعتمد كلٌّ منهما عكازه ، وأطلق لخياله العنان .

« كفاني عذاب يا منى . تعالَيْ ننصرفْ من هنا . »

ولم تنتظر مِرسال جوابي . نفرت من جانبي كالقطة المذعورة . وتبعتها الى بيتها حيث تنتظرها الحقائب الفارغة والأثواب الحائرة .

كان صباح غدٍ موعد سفر مِرسال . وكانت تلك اللحظات هي الباقية لنا ، ننعم فيها بالأحاديث الحميمة ، الأحاديث الساذجة التي تضمخ نفوس الصبايا .

وراحت تنبش في الأدراج ، تختار منها ما تحتاج اليه في رحلتها . وتمسح من حين الى آخر دمعات أبت الا أن تشارك في انفرادنا .

« لو كنتُ مسافرة معه لما بكيت يا منى ، ولكان لاستعدادي غير هذا الطعم المغمَّس بالغبار . ولكني أحيا الآن على أمل لقياه هنـاك . سوف يتحرَّك ضميرك بالملامة يا منى . قولي ما شئت . قولي إنهـا خيانة . أجل ، ولكني الآن متجهة الى اعظم خيانة ، خيانة نفسي وعاطفتي . اني مقبلة على بيع جسدي من هذا الغريب الذي يدعى « جون » . والثمن هو هربي من هنا ، وتقريب خطواتي من دروب يسير عليها راجي .

سوف أقـدم لجون جسدي وأخون عاطفتي . وبعدُ ، ما همَّني ماذا أخون ؟ ومن ؟

تصوَّري ، يا منى ، حياتي موزعة بين رجلين ، وكياني مشدوداً الى عالمين : هناك رجل أحبه ، وآخر أخضع لمشيئته ، يستعبدني ، يشتريني . لو بقي راجي لما فصلت روحي عـن جسدي ، وعشت في هـذه الازدواجية المريرة .

أهـذه نهاية مثاليّتك ، يا منى ؟ أهـذه نتيجة أحلامنا وتأملاتنا ؟ أتذكرين ؟

ولكن من المُلام في ذلك ؟

هو ... راجي .

لو أراد لما ترك هذا الجرح الدامي في صدري . وربما راجي بريء ، واللوم على هذه القرية العاجزة ، وتلك الآفاق المحدودة التي لم تتّسع لطموحه ولخفق جناحيه القويين . »

ظلّت مِرسال تقذف بالكلام ، وتشرق بالدموع ، وتعبىء الحقائب ، وتقفل الأدراج ، وأنا لا أجد ما أقول لها .

لقد أفلت الزمام من يدي ، وارتمت هي بين عواصف ثائرة تقذف بها بعيداً وتغيّبها في أجواء غريبة.

ورأيتها تبتعد أكثر وهي تضع رزمة أوراقها بين يديّ ، في صباح اليوم التالي :

« من يدري ، يا منى ، كيف تدور الأيام ؟ هذه الأوراق لن أحملها الى بلاد الغربة ، خذي احفظيها ، واذكريني . »

كنا نقف تحت شجرة الازدرخت عند زاوية دارنا ، وكان المودّعون ينتظرون مِرسال ليشتركوا

في قذفها الى أشداق المجهول .

لِمَ تركتِ ، يا مِرسال ، أوراقك بين يديّ ؟
كانت الصداقة تقضي بأن احتفظ منك بذكريات أخرى : عقد ألفّه حول عنقي ، ويجيء يوم تنفرط حباته وتضيع على الطريق .
أو قرط يبرق ، ويبطل استعماله بعد أيام ، فأُقفل عليه علبة الحلى .
او سوار رخيص يبهت لونه بعد ساعات ، مثل الأسورة التي كنا نشتريها من « شامل » .
أشياء صغيرة لا تخدش الذات ، نلفّها حول العنق أو المعصم ، أو نضعها فوق الصدر ، ثم ننساها حين نتابع رحلتنا في دروب الحياة .
وهديّتك أقضّت مضجعي ، وأقلقت وحدتي ، يا مِرسال .

حملتُ رزمة الأوراق ورحتُ أبحث عن مكان أخفيها فيه ، وأبعدها عن أذى العثّ والذباب والأيدي

الفضولية .

وفي كل صباح كنت أفتح عينيّ على الدرج ، أبحثُ عنها ، أحرص عليها كما يحرص البخيل على ليراته الصفر .

وبدأت صفحاتها تبهت وتصفرّ . لقد عبثت بها يد الزمن . وصلت اليها في الركن القصيّ من الدرج المظلم .

واكتشفت ديدان العثّ مخبأها فسارت اليها ، ولم تعد التهوية تفيد شيئاً .

أوراقك مرتمية بين يدي ، منهوكة ، خائرة ، هرمة .

أوراقك هذه خلاصة تلك اللحظات الثمينة التي عشناها في أجواء المرح والانطلاق ، عصارة الدموع الحارة ونور عينيك في ليالي الأرق .

مِرسال !

لِمَ تركتها بين يديّ ، يا مِرسال ؟

لقد نسي الجميع لون عينيك . حتى أمك ، لم تعد تنتظر وقع قدميك على بلاط الدار . أخضعَها الزمن

لسلطانه ، فبدأت تنسى ، وتألف حياتها بدونك ، ولا تترقب النور يشرق في أجواء بيتها مع إطلالة كل فجر .

وهبّت الرياح « القبلية » فمسحت اسمك من سجلّات القرية ، ومحت آثار أقدامنا فوق الدروب الضيّقة ، والسطوح الساهرة في ضوء القمر .

« عطيناهم قول ! »

وظلّت العبارة تلاحق نجلا ، تؤرق لحظاتها .

وارتمت فوق السرير وفي يدها قلم وورقة ، وراحت تصب ثورتها في سواد الحروف :

« يا كمال !

أعطَوْهم القول عليّ . أمي وأبي وإخوتي وسكان القرية جميعهم أعطوا القول لسليم .

قالوا له : سوف تكون نجلا عروسة لك .

عبارة واحدة تصدر حكماً يدوم مدى الحياة ، وأقوم أنا بتنفيذه .

أنا، يا كمال، الفتاة التي اختارها قلبك من بين عرائس القرية.

هل كنت تعلم، وأنت تدسّ كلماتك الشهية في سبيلي، ان هذه الكلمات ستتحول الى سمّ زعاف، وتقلب حياتي كلّها الى جحيم، وتضمّخها بعبير الموت؟

لقد استعجلَت كلماتك وأدي.

في مساء هذا اليوم، يلتقون في دارنا، يسمرون في سهرة عارمة، يتلذّذون بأطايب الطعام والكلام. ويسردون حكايات الماضي والمستقبل. ثم يقترب كبير الجماعة ويمسك بيدي، ويقودني الى ثغر الهاوية.

ساصرخ كثيراً في هذه الليلة يا كمال. سيتعالى صوتي، ويخبط جدران صدري، ويمزق أعصابي وقلبي، ولن أسمح لأحدهم بأن يسمعني.

حتى أمي لن تسمع صوتي، أمي التي حملتني احشاؤها تسعة أشهر، ونام قلبي في جوار قلبها، طوال تلك المدة.

لن تقوى أمي على سماع صوتي لأن جدران

الكلس بدأت ترتفع في أذنيها مذ شقّت صرخاتي صمت وجودها ، مذ انفصلتُ عنها لأكون الجيل الآخر .

ولكن الرياح التي تمرّ فوق دارنا ستحمل أصداء صوتي الى البعيد ، عبر الأيام المقبلة ، الى الأبناء والأحفاد .

وهذه الرسالة تحمل إليك آخر ما يمليه القلب . ففي هذا المساء أشترك معهم في وأد هذا القلب ، يا كمال !

منذ الليلة أُصبحُ خطيبة سليم ، أحمل خاتمه في إصبعي ، أطوّق عنقي بطوق الحديد البارد القاسي .

وفي صباح الغـد ، أكون زوجتـه ، تستقبلني ذراعاه في كل مساء ، وأنحني أغسل قدميه بمياه دافئة ، وأعدّ له الحساء والغداء والقهوة المطيّبة بحب الهال . أنجب له الأولاد ، أملأ دياره بثمار بطني ، أمـدّ أظافري الى جلدي ، أسلخه ، لأجعله أسواراً منيعة تصون حياته وتحرس قلبه .

اسمعني جيداً يا كمال ، وافتح لي صدرك

برحابة، كما فعلت في تلك الليلة الفريدة. فان أحداً سواك لن يسمع هذه الصرخة الملهوفة استغيث بها قبل ان تبتلعني الهوّة السحيقة.

أتحبّني حقاً؟

هل عندك الطاقة الكافية لتستوعب حبي لك؟

اترك القرية اذاً حفاظاً على حبنا.

أخاف ان تمر الأيام فوق وجهينا، ونتقابل في لحظة، وتراني فتكاد لا تعرفني، ونصبح غريبين في دنيا حبنا.

لذا أطلب منك أن تبتعد حتى ألتقيك في كل مساء، ويبقى حبك في صدري قصراً دافئاً الجأ اليه في كل لحظة، وكلّما مدّ زوجي الي ذراعيه ومرّغ شفتي بقبلاته.

سوف تبقى شفتاي تحملان طعم شفتيك، وتبقى الوسمة النارية بين جدران قلبي.

كنت أعجب كيف يبقى الكيّ فوق رؤوس أبناء قريتنا أو على أجسامهم. تعرف كيف كانوا يشفون المرضى بالكيّ، ويتلاشى المرض، وتبقى آثار النار فوق الجلد، مدى العمر.

لم يكن حبك مرضاً.
كان نفحة الحياة في حياتي، كان كل حياتي.
التقينا مرة، يا كمال، وهذه اللقيا تعيش معي،
تجاور روحي، أحرص عليها حرصي على نور عيني.
فمن أجل حبّنا أرجو أن تبتعد.»

قرأت نجلا الرسالة، وانحنت فوق الورقة المبلّلة بالدموع تقبّلها وتنفخ فيها لهاثها ودفق عاطفتها، ثم أمسكت بها وراحت تعصرها في قبضة يدها.

لقد غادرت حنّة دارهم قبل لحظات. حمّلتها أم هاني الرسالة الاخيرة: «عطيناهم قول!»

ونسيت حنّة في لهفتها أن تغلق الباب خلفها، وراحت قدماها تقلقان الدرب، وقد تدلّت من شفتيها بسمة خبث ودهاء.

لقد نجحت في مسعاها.

وحرّكت لسانها بين جدران فمها تتذوّق طعم النصر والنجاح.

بقيت نجلا تراقب ما يحدث، دون أن تفتح باب

غرفتها. لقد اعتادت أن تفهم كل حركة من وقع الصدى، من النغمة الخاصة في صوت أمها، من الأحاديث التي يرسمها وقع الخطى على عتبة الدار.

وتلفّتت حولها تبحث عن منفذ تهرب منه وتنسى الواقع الموجع، تصبّ فيه جام ثورتها، فلم يكن أمامها سوى قلم وورقة.

فكّرت، بادىء الأمر، في أن تكتب رسالة الى والديها، تدسها في فراشها، ثم تهرب... ولكن الى أين؟

وكمال، ماذا جرى له؟

لم تبصره منذ تلك الليلة. هل وصله التهديد؟ هل خاف من غضبة هاني وإخوته وأبناء عمه؟

كمال، ماذا جرى يا كمال؟

وراحت يدها تلاحق القلم، وهو يشقّ سبيله على الورقة، ويسابق أفكارها وثورة عواطفها.

وظلّ قلمها يصرّ، ويستحمّ بدموعها السخيّة، حتى طرق سمعها وقعُ أقدام تقترب من باب غرفتها، فعصرت الورقة ثم أخفتها في صدرها، وقد قررت أن تحرقها وتخفي أثرها.

مضت ساعة وهي واقفة امام المرآة تخاطب نفسها :

« مثّلي، يا نجلا. ابتسمي. ارتدي افخر ملابسك، وسرّحي شعرك هكذا. أجل، هذه الخصلة لا باس إن ثارت فوق الجبين. ولا باس من ذبول خدّيك، امسحيها بهذا المطرّي المنعش.

إنك تستعدين لاستقبال عريسك. هيا نجلا. سليمٌ اسم زوجك بعد غد، رفيق عمرك.

بعد غد تصبحين وإياه جسماً واحداً.

نجلا، تشجّعي.

أين أعصابك يا نجلا؟ اين بسمتك الساحرة؟

اسمعي. هذا وقع خطاهم. إنه قادم مع أمه. ستعيشين معها، مع أم سليم. وفي كل يوم تنهضين باكراً، تقبّلين يدها، تحملين اليها قهوة الصباح. تستميتين تحت قدميها لأنها أمه، لأنه هو يخضع لها. هو ملكها، وسيزداد المتاع بوجودك.

امسحي القلق والحيرة من عينيك. خذي، هذا قلم الكحل. ذرّي بعض العطر.

يده تقرع الباب . وصل عريسك . اسرعي لاستقباله .

مثّلي ، يا نجلا . تعلّمي كيف تجيدين دورك ، لأن حياتك وقفٌ على إتقان هذا الدور . »

جرّت نجلا قدميها من أمام المرآة ، وهرعت الى الباب .

لقد تسمّرت قدماها بالأرض ، وبات صعباً عليها ان تقتلع مشاعرها من تلك النقطة .

وتطلّعت أم هاني الى وجه ابنتها ، فلم ترَ سوى الألوان والخطوط السود والحمر ، فانشرح صدرها .

« رجعت نجلا تهتم بمنظرها . شوف يا بو هاني ، بنتك بلشت تعرف قيمة الرجال . »

وأجاب أبو هاني وهو يُطلق ابتسامة راضية الى وجه زوجته ، وكأنه يذكّرها بيوم زواجهما :

« بلّشت تمثّل دور أمها ! »

افتقدهم صيف ذلك العام فلم يجدهم .

مدّت الكرمة أثداءها المكتنزة . تدلّت الاثداء متورّمة فوق الحديقة الملاصقة لبيت مِرسال . ولوّحت الشمس الحبّات فحوّلتها الى لون وردي ضاحك . وظلّت الأوراق الخضر تنصب خيامها ، تردّ الوهج المحرق عن الحبّات الغالية .

وحقول القمح خضعت لسلطان الحرّ ، فشابت رؤوس السنابل ، وانحنت مثقلة بحكمة الأيام .

وظلّت الشمس تصلي المساكن الصغيرة المتواضعة ، تلاحق الناس بسياطها الحامية ، تلسع رؤوسهم ،

تتحدّى الكوفيات البيض فوق رؤوسهم ، تمسح سواعدهم بالنار .

وخرج الأبطال يصارعون الشمس . وبقيت الشمس تتابع نضالها العنيد في حقول القمح .

وقفتُ في طرف الحقل ، فوق أحد اجنحته الممتدّة عبرَ الآفاق ، فوق صدر يتحدّى الكون .

كانت الدماء تنزف من باطن كفيّ ، من أناملي الصغيرة الطريئة ، وتسحّ على الجذوع القصبية الجافـّة ، تعمّدها ، تسطّر لها ميثاق عطفٍ وحنوّ .

وتحولت عيناي قليلاً . راحت نظراتي تتزحلق على رؤوس الحصادين .

أبي والجيران والأصحاب ...

تحوّلت قبضات المناجل الى جمرٍ يُحرق ، والتراب التهب تحت أقدامهم ، وغلى الماء في الدَّوْرَقِ المحتمي بفيء الشيح .

وظلوا كالعاصفة منطلقين . همّة الأبطال لا تفتر .

أصواتُهـم كانت تقلق الغفوات الخاملة عـبر الحقول .

والصبية الصغار خرجوا حفاة يعمّدون اقدامهم الطريئة في أجران النار .

أطلّ على القرية بعضُ الغرباء . وجوهٌ غريبة لا تعرفها القرية الا في الصيف .

بعضهم أبناء لها يقيمون في المدينة ، ويعودون إليها ، كلّ عام ، ليمتصّوا ضرعها ، ويجرعوا حفنات خيّرة تُقيت أنفسهم بقيّة الفصول .

أولئك كانوا يرهَبون الصيف . كانت نساؤهم تحمل المظلّات الواقية ، تردّ بها قبلات الشمس الحامية .

لقد عاشت أرواحهن في الظلال زمناً طويلاً ، وباتت عاجزة عن تحمّل قُبَل اللهيب .

والرجال كانوا يُخفون صلعاتهم الذابلة تحت منديل ، وهم يقطعون المسافات القصيرة عبر الأزقة ، يتفيّاون باشجار التوت والأزدرخت .

« باب الصيف واسع ! »

قالت أنجلينا ذلك وهي تُخرج الحشيّة العتيقة لتضعها فوق المصطبة ، ثم تربض فوقها لتكشّ

الذباب ، وتحصي حركات المارّة .

باب الصيف واسع .

تحوّلت السطوح الى غرف منامـة . وانتصبت الخيام تحتضن الطراريح المختنقة بالرطوبة ، وتؤوي الأجساد المغسولة بالعرق .

« شفتِ؟ نجلا تخانقت مع سليم . وصل صوتهـن لآخر الضيعة . »

كانت سعدى تنقل البشرى تفرّج بها غصة دائمة في صدرها .

مرة واحـدة اجترّت الأفواه أخبـار نجلا ، ثم غيّبتها جدران المنزل الزوجي . لقد خارت قواها في تلك المرة ، وكشفت عن وجههـا القناع ، ثم أعادته ، مغلوبة على أمرها ، لتعيش خلفه بقية أيامها ، ترتديه كالأديم الملتصق بلحمها وعظامها .

وكمال هجر القرية .

لم تصله رسالة نجلا ، ولم يطرق بابها يعاتب أو يهدد . لفلف النُدبة النازفة في صدره وتلاشى .

وخبّأته المدينة في إحدى زواياها المظلمة .

بات واحداً من الغرباء الهائمين في الشوارع والأقبية المختنقة بالدخان .

وفي ذلك الصيف زارنا أحد الغرباء المصطافين .

كان له لسان شهي . الكلام ينزلق على لسانه سخياً سلساً :

« لماذا تبقى منى في القرية يا أبو سمير ؟ بنتك خلقت لتسكن المدينة . حدثتني أمس عن طموحها . منى فتاة طموح . دعْها ترافق سمير الى المدرسة . تقتل مستقبلها إن حرمتها العلم . »

عشقته في تلك اللحظة .

غمرته بنظرات دامعة .

وظلّ يحكي ساعات ، وصوته يغور في أذنيّ « سنفونية » عذبة .

شمس جديدة أشرقت في ظلمة حيرتي .

في المدينة تبقى القمصان بيضاً ، لا يغمسها العرق والغبار .

في المدينة تزول الشقوق من الأنامل والأقدام .

شمس المدينة لا تحرق ، وشتاؤها لا يجمّد

الأطراف .

في المدينة أدفن قلقي وَحيْرتي ، وأودّع وحدتي القاسية .

هناك أتعلم معنى الحياة ، أتعمشق بسلالم تطال الشمس .

كنت صغيرة ، عديمة الخبرة ،. وكان في يدي دلو صغير وددت لو أرميه في بئر الحياة ، الحياة الكبيرة المجلجلة في عالم خيالي .

وحملت الدلو ، مع حوائجي القليلة ، وأنا أمسح دمعات حارة امتزجت بدموع أمي وأبي وجدّتي ، وحجبت عني الشمس الضعيفة ، والغيوم المبعثرة في آفاق القرية .

وظلت دموعي تكرج على وجهي وتغسله ، والعربة العتيقة تستغيث على الدروب المهشّمة ، تبعدني عن قريتي الصغيرة الهانئة .

بصقتني السيارة في ساحة كبيرة ، يملؤها صخب الباعة ، وصرير عجلات القطر فوق الخطوط

الفولاذية .

وطوّقتني أنظار شرهة ، راحت تحملق فيّ وتعريني . ومدّت الي المدينة ساعديها .

شعرت بالاختناق ، بحاجة قصوى الى الهرب .

وظلّت المدينة تزحف إليّ ، وقد بدت كامرأة مستهترة ، شعرها ينسدل فوق عري صدرها ، وذراعاها تمتدان اليّ تطوّقاني ، ثم تقذفان بي الى إحدى حجراتها المظلمة ، نقطة أخرى من النقاط الكثيرة الضائعة في جسد شوّهته البثور ، علامة استفهام تقف عند المنعطفات الكثيرة .

كنت صغيرة وعديمة الخبرة . اقتربت المرأة تفرك وجهي ، تجرّح صدري بقبلات كالثلج ، وتسجّلني غصناً جديداً من الغصون المبتورة ، غصون قطعت من أشجار التوت والسنديان والشيح في تلك الجبال العالية .

هل كان العلم وحده دافعي الى الهرب ؟

ولماذا بقيت العاصفة تخبط صدري وتهشّم أعصابي ؟

غرقت في بحر الكتب . فتحت اذني لأجرع الحكم

التي يتفوّه بها اساتذة حكماء وقورون.

وفتحت عيني أشرب وجوههم، أرشف نظراتهم، أختبر أحاسيسي في النظر اليهم.

وسرعان ما أصبح الكتاب رفيقاً خاملاً، ومات الاشراق في عينيّ لتحلّ محله مسحة غباء. وعدت اتيه في بحار أحلامي. باتت الكتب المهرب الجديد الذي أركن اليه لأنسى حيرتي وضياعي وشوقي الملحّ الى الوجه المجهول، الى طيف خلقته لأقتل برفقته وحدتي.

أذكر جيّداً تلك اللحظات الضائعة من حياتي. ويعصر قلبي شعور النقمة والأسى.

أذكر ساعة تجمّعت حولي رفيقات الصف معجبات بنجاحي، وارتفعت اليّ نظرات الأساتذة بفخر.

نجحت!

قطفت ثمرة أتعابي ناضجة طيّبة. تدفقت عليّ الجوائز تقديراً لاجتهادي.

وتهت في محيط ثنائهم. وظلّت أصواتهم تلاحقني

حتى دخلت غرفتي ، وطرحت الجائزة على الأرض ، ورحت أدوسها بقدميّ ، وأعتصر ألماً ينخر صدري .

لم تُفرحني الجائزة ولا أغراني النجاح . وددت لو أنام بين ذراعين تحنوان علي ، لو أعود الى لحظة من لحظات الطفولة استشعر الدفء والاستكانة في حضن أمي ، أو أسير فوق التراب الدافىء في الحقل المجاور لبيتنا .

تمّنيت لو ينفتح باب غرفتي ويدخل منه فارس أحلامي ، فارتمي بين ذراعيه ، أبدّد قلقي ومخاوفي .

وقفزت الى النافذة ، أُطل منها على الملاعب الفسيحة علّني اراه .

وعاد السؤال الملح يطرق اذنيّ :

ـ والآن ، ماذا ستفعلين يا منى ؟

السؤال نفسه ، السؤال الذي يواجهني عند منعطف كل درب : ماذا سأفعل ؟

لست أدري . لم أكن أدري شيئاً . كان الغد سحابة تائهة في سماء حياتي .

أذكر الآن تلك اللحظات الشريدة من حياتي .

إن عروقها تمتدّ حتى الساعة . وتطن في أذني أصوات الفراغ والهروب والألم، مغمّسة بأحلام اليقظة وشوق الانتظار .

ولما استيقظت من أحلامي ، جمعت قواي وانطلقت في الشوارع الطويلة المظلمة ، شوارع المدينة ، أبحث عن عمل أفتت فيه أعصابي ، وأهرق في تيّاره دمي وماء حياتي .

« عزيزتي منى ، اغتنمت فرصة لأكتب اليك من هنا ، من منفى اخترته بنفسي .

هذه فرصتي الوحيدة لأخلو بنفسي وأكتب .

أكاد أنسى الحروف العربيـة ، تلك الحروف الجميلة التي حفرت بها أوراقي القديمة . أتذكرين ؟

أين هي تلك الأوراق يا منى ؟ أرجو ان تحرقيها اذا كانت لا تزال في درجك .

جون لا يزال في المخزن ، وقد نام الصغار .

عندي ثلاثة منهم يا منى . انهم يزقزقون كلّ صباح ، مثل الحساسين ، وينحشرون معي في هـذا

القفص الضيّق .

آه لو كان صغاري هناك ، بين المروج ، فوق حقول القمح ، في الكروم !

ولكنّ الحسرة لا تفيد .

لن أبعث لكِ برسمي ، حتى لا تريْ مِرسال اليوم . افضل ان أبقى في خاطرك الطيف الهائم بين الكروم ، يقتات بالنسائم الطليقة ، ويرنّم أناشيد الحياة .

حتى الغناء ، هنا ، غريب الطعم يا منى .

تسالين لماذا أكتب بعد ذلك الصمت الطويل ؟

إن رسالتي هذه تسجّل تحولاً جديداً في حياتي .

انها المفتاح لحياة أخرى لم أعرف طعمها من قبل ، إن في القرية ، أو في هذا العالم الغريب .

أكاد أسمع سؤالك : وراجي ؟

انتظري ، يا عزيزتي .

المسافات في هذه البلاد بعيدة جداً . وراجي لا يُقيم في الجوار . وهكذا عشت فترة طويلة في الانتظار ، وهدهدة حُلمي المدلّل .

بقي راجي يعيش معي في البيت ، يرافقني في

المراحل الكثيرة التي قطعتها . كان الى جانبي ليلة الزفاف . وكلما كنت اضع أحد أطفالي ، كان راجي يقترب مني ، يطبع قبلة على جبيني ، ثم يحتضن يدي بكلتا يديه .

وكلّما خلوت بنفسي ، أعود الى تلك اللحظات النادرة في حياتي ، فأهيم معك بين البساتين أو أعيش في عينيّ راجي .

وفي كل مرة ، كان ينتزعني من حلمي صوت المرأة الأخرى التي تعيش هنا ، تعدّ طعام جون ، وترفأ جواربه ، وتنظّف ثيابه ، وتنجب له الأولاد .

وجوني العزيز الطيّب لا يلحظ شيئاً من هذا .

إنه رجل أعمال ، ساذج القلب ، بلا خيال .

لقد علّمته أمه كيف يعتني بالنقد ، وينذر حياته كلها لرأس المال ، وينتشي بتخمة الصندوق .

وصباح أمس ، كلّمتني صديقة لنا ودعتني ، مع جون ، الى تناول العشاء مع بعض الضيوف من « البلاد القديمة » .

وكان راجي هناك .

راجي ، وامرأة شقراء لا تعرف لغتنا .

كدت أصرخ وأتراجع الى الوراء ، وأنا أخطو العتبة ، لو لم أشعر بيد جون تضغط ساعدي .

اقتربت من راجي أهز يده وأتعرف الى زوجته ، وأبحث في عينيه عن حكايتنا القديمة ، فصدمني جدار من الجليد .

رأيت عرمة الأحلام تنهار على قدميّ ، وسمعت وقع الحجارة المنهارة . وتلفّت حولي أحدّق الى الحضور ، أتاكد من أنهم لم يهرعوا الى جمع الحجارة ، وتنظيف السجّادة من غبار علق بها .

وعدت أتأمّل راجي من جديد .

لقد تحوّل كثيراً يا منى . إنه غير الشاب الذي عرفته في القرية .

لقد زادت سنوات الرفاه سمنته ، فاستدار بطنه ، وتقلّص شعره عن صلعة داكنة ، وتهدّل خدّاه ، وبهتت نظراته . حتى صوته كان صوت شخص غريب أتعرّف اليه للمرة الاولى .

وبدأت أفيق من الحلم ، وأتحسّس مشاعري ،

وأبلسم جراح الخيبة في صدري .

علمت أن راجـي وهب نفسه ، كل نفسه ، للمرأة الشقراء .

لقد احتضنته تلك المرأة غريباً مهاجراً وحيداً ، ودعته الى دارها .

طوّقته بعطفها ، وغذّت طموحه ، وفتحت له مخزناً كبيراً .

وبقي للأيام أن تنهي فعلها ، فأخذ الزمن يقولب شكله ضمن الاطار الجديد . وذاق طعم النشوة والنجاح .

وظلّ يسير الى الامام جزعاً ، خائفاً أن تعيده الأيام الى القرية .

كان راجي يهرب . وعلقت عيناي غباراً خلّفه وراءه على الطريق ، ثم غار كيانه في سحابة كثيفة .

وبدوت أنا من خلف السحابة أثير جزعه من جديد .

أنا ، في شكلي الحالي ، امرأة ناضجة ، وأم

أولاد ، وزوجة حكيمة .

أنا لا أشبه الطفلة المراهقة بين كروم العنب الزيتون .

وفكّرت ، يا منى : ان حبّي لراجي كان وليدَ تلك اللحظات ضمن حدود القرية . وهو باقٍ ، هناك ، ملك ذرات الغبار فوق الوادي ودرب الكروم .

كنت على خطإ حين حاولت ان أجرّ اللحظات خارج حدودها ، وأفرض الأحلام على الواقع .

ربما أحبّني راجي بمقدار حبّي له . ولكنّ حبنا رهن بذلك المكان والزمان ، ورضيع صدرٍ لا يعرف الغِشّ ، صدر قريتنا .

والآن ، لقد انصهر كلانا بنيران الغربة ، ومرّ كل منا في تجارب كثيرة ، وحقق كلانا بعضاً من الاحلام .

لو كانت الرسالة تسجيلاً لصوتي لسمعتِ قهقهاتي ونبرة السخرية في صوتي .

إني أضحك من امرأة حاولت أن تمدّ سني المراهقة عبر جسر الحياة ، وتغمس لقمة العيش في

الأحلام والسراب ، وتُرضع أبناءها حليباً لم تفوّره نيران الحياة .

سألتك مرة : هل يموت الحب يا منى ؟ فلم تجيبي عن سؤالي في ذلك الحين .

ها أنا أعطيك الجواب :

لا ، ان الحب لا يموت .

الحب مجموعة حبال سحرية تتدلىّ من أبراج الحياة . وكلنا يمسك بطرف الحبل الى حين .

وتهبّ العواصف ، تتلاعب بالحبال . ويرى الناس أنفسهم عبيداً معلّقين في الهواء . أنفاسهم هائمة على طرف الحبل ، وقلوبهم واجفة تنتظر ساعة يفلت من أيديهم أو ينقطع .

ويبقى الحب يذرّينا ، يتلاعب بأرواحنا ، ويقطع معنا مراحل العمر .

وحتى لو افلتت حباله فان من انصهر بنيران الحب يبقى عبداً له مدى الحياة .

إننا أحياء ما دمنا نتعبّد لهذا الحبل السحريّ ،

يا منى، وما دامت أنهاره تتدفّق في قلوبنا، لكنّ الدفقات تخطىء هدفها أحياناً، وتنصبّ في المجهول، في اللانهاية.

لم يمت الحب في صدري، يا منى.

كان الحب الدرس الأول الذي فتحت عينيّ عليه، وسوف يبقى آخر رفيق لي الى اللحد.

وحين وقفت أمام راجي، ليلة أمس، تلقّيت الصدمة التي يخلّفها انقطاع الحبل، ولكن الخيوط السحرية لا تزال متصلة بشرايين دمي.

أنا اليوم أمرأة ناضجة، كبرت بين عشيّة وضحاها. كبرتُ فجأة مثل نبات الفطر. وفي مرحلة النضج فقدت أشياء كثيرة، أهمّها نظرة الجدّ الى الحياة، الى الغد المجهول.

كنا دائماً نعيش في الغد. أتذكرين أحاديثنا عن الغد، يا منى؟

بقيت كذلك، هنا، حيث الناس يحيون اللحظة، يفنون فيها، يمجّدونها.

بقي الغد أكبر من الحاضر ، والحلم أعظم من الواقع ، حتى كانت ليلة أمس .

أنا ناضجة .

أنا واقعية .

أنا لستُ مِرسال بعد اليوم .

واذا ما عدت في الغد الى أحضان قريتنا ، الى حضن أمي ، فساكون كالسياح الذين يشوقهم أن يرَوا الشرق ، ويتعرفوا سحره وغموضه . ولكن الفرق بيني وبينهم أني أعرف كيف أسير فوق الجسر ، وأصل من اقرب الطرق .

أسمع صرير المفتاح في الباب . لقد عاد جون . أستودعكِ الله ، وامضي لأعد له العشاء .

مِرسال »

انقضت عدّة سنوات، وظلّت يداي تعملان.

لقد تقلّص تفكيري وانصبّ كله في يديّ، في رؤوس أناملي.

طموحي، وآمال غدي، كلّها، أسكبها على أزرار الآلة الكاتبة، في الصفحات القاتمة التي يأمر بها مدير الشركة:

«رسالة مستعجلة، يا آنسة منى...»

«وماذا وردنا من برقيات، يا آنسة؟»

«ماذا بشأن موعدي مع الوزير؟»

صوت المدير، وخبط الحروف القاتمة، هذا

وجودي ، كل وجودي ، الحبل الذي يصلني بالعالم الحيّ .

وفي غرفتي الصغيرة ، أعيش مع صوت جارتي .

صرخاتها تقلق هدأتي من الصباح .

مساوماتها مع بائعي الحليب والخضار والأقمشة لا تتوقّف .

إنها الصورة المعكوسة لصرخات جاراتنا في القرية .

نسيت القرية طوال سنوات ، قريتنا الحبيبة الوادعة .

لماذا لا أعود إليها ، وأضع حداً لهذه الغربة الدائمة ، وهذه الوحدة التي تأكل أحشائي ؟

هبطت الفكرة كالوحي .

وفي صباح اليوم التالي طرت الى القرية . وكان شوق غامر يدقّ جدران صدري ، ويدفع الحرارة في عروقي لتصل الى أناملي .

كنت أتوقع أن تخرج القرية لتستقبلني ، وترحب

بالطائرِ العائد إليها .

وظلّ الشوق يفور في صدري .

وبدت المساكن الصغيرة العزيزة هادئةً صامتة !

عند مدخل القريـة ركض الصبية الصغـار يستقبلون العربة الغريبة ، ويتعرفون الضيف الجديد القادم اليهم . تأملت وجوههم علّني أعرف أحـداً منهم ، ثم تراجعت خائبة .

وأطلت أم الياس تستطلع الخبر ، فلما أبصرتني ردّت الباب الخشبي العتيق خلفها ، وأوت الى دارها .

جارتنا أم الياس لم تعرفني !

وحدّقت جدتي الى وجهي طويلاً . التفّت العائلة كلّها حـولي تتاملني . ثم أدار الجميـع رؤوسهم وابتعدوا ، أو هكذا بدوا لي . وجدار الأيام يرتفع ليفصل بيننا .

كانت أصواتهم تأتيني من بعيد ، عبر سنوات الضياع والهيام .

كانت القرية كما تركتها ، أما أنا فقد تغيرت

كثيراً .

كان ترحيبهم بي شبيهاً بالصفعات العنيفة .

وجوههم أكّدت لي الرفض أكثر من القبول .

لقد رفضتني القرية لحظة انسحبت من وجودها ، لأغرس قدميّ في تربة غير تربتها .

وخرجت الى المصطبة ، مرتع الطفولة . وقفت عليها أتلفّت الى الدروب الضيقة ، دروب فرشتها ، في غربتي ، بالزبرجد والياقوت ، ورصّعتها بجواهر خيالي ، فعادت تصفعني النتؤات والتربة الموحلة ، وقد اوت في شقوقها الحصى والنفايات .

وارتدّت عيناي عن جدران المساكن خائرة منهارة :

هذه البيوت عاشت في قلبي ، تغذّت من أضلعي ، نحتها من المرمر والرخام . وها أنا أراها غبراء ، دكناء ، ترتدي ثوباً من الغبار والدخان ، وقد طليت جدران بعضها بالزبل والسواد .

شعرت بأن القرية محت إسمي من سجلّاتها ، كما محت أسماء مِرسال ، وكمال ، وراجي ، وسواهم .

وهرعت الى السيارة ، أهرب من الصفعات القوية ، وأعود في الطريق المتعرّج المتآكل ، الطريق الذي حملني مرة عبر الآفاق الحالمة .

وقبل أن اغيب عن أعين القرية ، وقفت ألقي عليها نظرة وداع ، وقد أفلت الزمام من يدي ، وبتّ كرة طائرة بين مدينة تمسخني وقرية تنكرني .

وقفت هناك ، أمد ساعديّ للريح :

بطلة خائرة في حلبة الصراع ،

نقطة استفهام على جبين الأرض .

للمؤلفة

طيور أيلول .... رواية
شجرة الدفلى .... رواية
الرهينة .... رواية

تلك الذكريات .... رواية
الإقلاع عكس الزمن .... رواية

الينبوع .... مجموعة قصص
المرأة في ١٧ قصة .... مجموعة قصص
الطاحونة الضائعة .... مجموعة قصص
خبزنا اليومي .... مجموعة قصص
الباهرة .... رواية للأحداث
جزيرة الوهم .... مجموعة قصص

نساء رائدات من الشرق ومن الغرب .... مجلدان

شادي الصغير .... قصة للأولاد + كتاب قراءة

الأعمال الكاملة .... (الروايات ـ مجموعة القصص) ٤ مجلدات

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Passer By_in Time

July *2009*

Passerby_intime@yahoo.com

Passer by in time